أزمات الشباب

تأليف

الدكتور اوجست ايكورن

تقديم

سيجموند فرويد

سلسلة ثقافية شهرية

١٠ قروش

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٤٤ – شوال ١٣٨٢ – مارس ١٩٦٣

No.144 — MARCH 1963

مركز الادارة

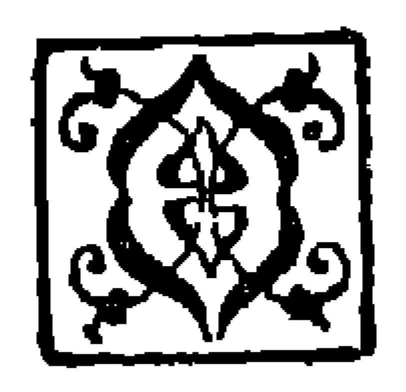
دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى – فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا – فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم – فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف – فى سائر أنحاء العالم ٣٥ شلنا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

أزمات الشباب

Wayward youth

تأليف

الدكتور أوجست أيكورن

Ougust Aichorn

تقديم

سيجموند فرويد

دار الهلال

مؤلف الكتاب

ولد هذا العالم النمسوى النابغة « أوجست آيكورن » August Aichorn في السابع والعشرين من يوليو سنة ١٨٧٨ بمدينة فيينا عاصمة النمسا ... ومات بها فى سن الحادية والسبعين ..

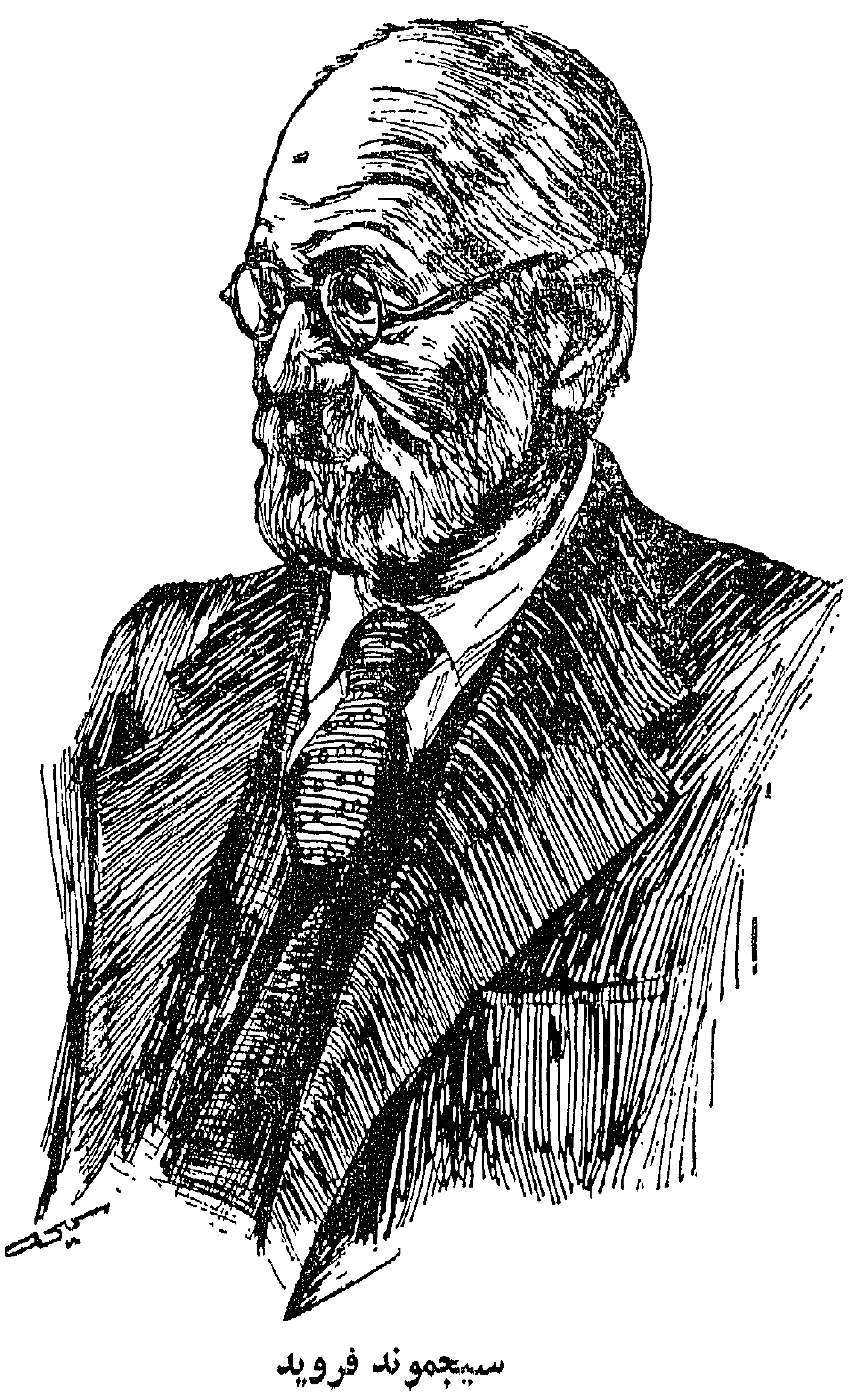
وهو سليل أسرة كبيرة محافظة .. واحترف التربية والتعليم منذ تخرجه فى سن العشرين . وكانت النظم شبه عسكرية فى جميع المؤسسات التعليمية والاصلاحية فهز ذلك وجدانه ودعاه للثورة ، وقام بحملة أمام الرأى العام لادخال نظام أقرب الى العلم والفهم والعلاج الواعى للمشكلات والأزمات التى يتعرض لها الأحداث والشبان ..

وأسس مع عدد من صحبه أول معهد لهذا الغرض التربوى والاصلاحى فى نهاية العقد الأول من هذا

القرن .. فكان عملا مبتكرا فى ميـدانه لم يسبق الى مثله من قبل . ثم عرف أثناء الممارسة باكتشافات فرويد فى التحليل النفسى فوجد الكثير منها يلائم منهجـه العملى ، فأفاد منه كثيرا واستغله فى توضيح أفـكاره النظرية ووسائل علاجه العملى .. حتى وصفه العارفون بأنه الرجـل الذى « طوع » أسـلوب فرويد العلمى لأغراضه ، ولم يتشـكل هو بأسلوب فرويد تشـكلا أعمى كما فعل الكثيرون من المعالجين النفسيين

ومما لاشك فيه أن نفاذ بصيرته ورهافة حسهوقدرته على « تقمص » شخصية المريض هى العامل الأكبر فى نجاح أعماله وأفكاره ...





سيجموند فرويد

تقديم

بقلم سيجموند فرويد

العالم النفسى المعروف
ومؤسس التحليل النفسى

مامن ميدان من ميادين التحليل النفسى أثار الاهتمام، وأنعش الآمال ، واجتذب العدد العديد من العاملين الأكفاء مثل ميدان التربية نظريا وعمليا .. وهو أمر يسهل علينا فهم أسبابه ، فلن يبدأ التحليل النفسى باتخاذ المصابين بأمراض عصبية موضوعا أساسيا له ، فقد انتهى الى أن استبدل بأولئك المصابين فى أعصابهم الأطفال والشباب الأسوياء ...

وقد اكتشف التحليل النفسى أن « الطفل » يبقى على حاله بغير تغيير تقريبا داخل سريرة المريض العصبى ، وداخل سريرة الحالم ، وداخل سريرة الفنان .. وأدى هذا الكشف الى القاء ضوء كثير على القوى الغريزية

والدوافع التى تضفى على الشخص خصائصه المميزة ، وهو فى أوج نضوجه .. فلا عجب أن يتطلع الناس الى التحليل النفسى ويعقدوا الرجاء عليه كى يحقق فى ميادين التربية الشيء الكثير .. بحيث نعرف على ضوئه كيف نسوس الناشيء ونصل به الى سبيل النضج السوى ، ونشجعه ونحميه من تنكب سواء السبيل ...

ولم تكن لى فى هذا الميدان التطبيقى مشاركة كبيرة. وكنت فى صباى أعتقد أن المهن الثلاث المستحيلة هى التربية والعلاج والحكم .. ثم استغرقتنى المهنة الثانية استغراقا كافيا . وليس معنى هذا طبعا أننى لا أقدر الميدانين الآخرين حق قدرهما متى اجتذبا عناية العاملين الأكفاء .. ولاسيما ميدان التربية

وكتاب « أوجست آيكورن » يتناول جانبا خاصا من جوانب التطبيق العملى للتحليل النفسى فى ميدان التربية .. فذلك الميدان على اطلاقه فسيح الأرجاء ..

وقد عمل المؤلف سنوات طويلة فى منصب رسمى كمدير لمؤسسات حكومية للعناية بالجانحين من الأحداث والشبان قبل أن يتصل اتصالا مباشرا بمنهج التحليل

النفسى .. فكان يعتمد فى علاجه لأولئك الشبان على حبه وعطفه القلبى على حالاتهم ، ويهتدى ببصيرة نافذة وفهم فطرى سديد لاحتياجاتهم النفسية ..

ولما وصل أسبابه بأسباب التحليل النفسى ، لم يكن لدى التحليل النفسى شىء كثير يعلمه اياه لم يكن قد عرفه من قبل بصورة عملية . وكل ماهنالك أن التحليل النفسى أتاح له مزيدا من النفاذ النظرى والتوضيح ، وبرر له انتصاراته العملية تبريرا منهجيا .. ويسر له أن يشرح للآخرين نظريته بصورة علمية مقنعة

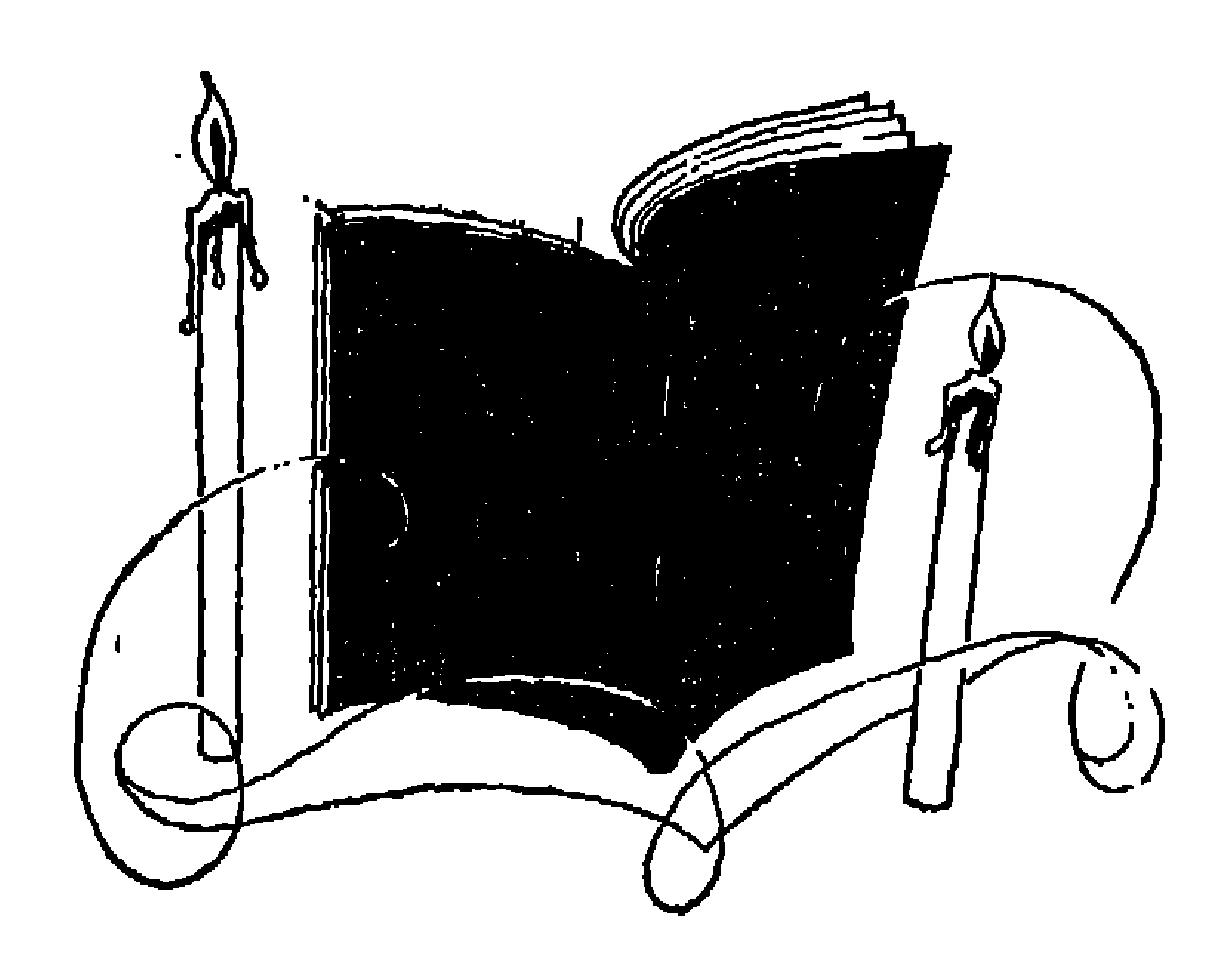
وليس فى مقدورنا بالطبع أن نفترض أن كل مُرَبٍّ لديه هذه الموهبة الفطرية .. ولكن تجربة « أوجست آيكورن » وما حققه من انتصارات أكدت لنا أمرين :

أولا : أن المربى بمعنى الكلمة يجب أن يتدرب على التحليل النفسى ، والا ظل الناشىء الذى فى كنفه لغزا مستعصيا على فهمه . وخير تدريب على التحليل ماجربه المعلم فى نفسه ، أى أن يخضع للتحليل النفسى فيفهم على ضوء حالته الخاصة المغزى الحقيقى لمنهج التحليل . أما التعليم النظرى للتحليل النفسى ، فلا يتغلغل فى العقل

بما فيه الكفاية ولا يؤدى الى الاقناع التام

ثانيا : أن العمل التربوى نوع قائم بذاته .. فهو ليس نوعا من التحليل النفسى . وكل ماهناك من صلة بينهما أن التحليل النفسى قد يساعد فى حل مشاكل التربية ، أما عملية التربية نفسها ــ ككل ــ فعملية مستقلة . وهذا ليس صحيحا لأسباب عملية فحسب ، بل ولأسباب نظرية أيضا .. فالتربية هى الأساس ، والتحليل احدى وسائلها ولا سيما فى حالات الجنوح والأزمات ..

سيجموند فرويد



تمهيد

غايتنا فى هذا الكتاب هى بيان مدى فائدة علم النفس والتحليل النفسى فى علاج أزمات الشباب . وسيكون كلامنا على الخصوص استعراضا لما عن لى من المقترحات وأساليب الدراسة والفهم وطرق المعاملة ..

وسنبين كذلك الى أى مدى يتكفل التحليل النفسى بمساعدة المعنيين بأزمات الناشئين عن طريق تمكينهم من الفهم المستنير واعطاء التفسيرات النفسية لمظاهر الجنوح التى نسميها أزمات ..

فالتحليل النفسى هو الذى يصل بالمربى الى معرفة أى أنواع السلوك المستهجن راجع الى اضطراب فى القوى النفسية . ويوصله أيضا الى العثور على أصل هذا النوع من السلوك ومصدره فى اللاشعور . وتكون الخطوة التالية هى هداية المربى الى أنجع الوسائل لاعادة الشاب المضطرب أو الجانح الى سواء السبيل بحيث يتلاءم مع الاوضاع الاجتماعية السوية

ومن المستحسن ، ونحن فى بداية الكلام ، أن نميز بين أنواع متباينة من السلوك « اللااجتماعى » .. ذلك أن كل طفل يكون على العموم فى الفترة الاولى من عمره مخلوقا لا اجتماعيا . ونعنى بهذا أنه يرمى الى اشباع احتياجاته

الغريزية بطريقة مباشرة ، وبغير اكتراث بالعالم من حوله ولا بما قد يراه فى سلوكه من استحسان أو استهجان . واذا كان هذا هو السلوك العادى للطفل بالنسبة للطفل نفسه ، فانه فى نظر الكبار يعتبر سلوكا لا اجتماعيا .. لانه غير متقيد بالمجتمع وأوامره ونواهيه

ودور التربية ينحصر فى نقل الطفل من هذه المرحلة اللا اجتماعية الى مرحلة توافق وتلاؤم مع المجتمع الذى يعيش فيه ..

وليس فى استطاعة التربية أن تحقق هذا الغرض الاذا جعلت النمو الغريزى والحس عند الطفل يسيران فى اتجاه سليم ، فيتم تحويل ميوله الفطرية الى الاتجاهات الصحيحة ، بحيث ينقطع الطفل عن أنواع السلوك الغريزى الممنوعة ، ولا يستخدم لارضاء ميوله الفطرية الاشكال والاساليب المسموح بها فى المجتمع ..

واذا لم تتمكن التربية من تنظيم الميول الفطرية على نحو يرضاه المجتمع ، فمعنى ذلك أن يبقى الطفل مخلوقا لا اجتماعيا .. وحتى اذا عدل أساليب سلوكه فيما بعد فسيبقى تلاؤمه مع المجتمع مسألة شكلية سطحية . اما فى أعماق نفسه فيظل لا اجتماعيا ، لايهضم قيود المجتمع ومطالبه .. وذلك لأنه لم يتخلص من الجذور الغريزية لميوله بل قمعها . وعملية القمع لا تستأصل ، ولكنها «تعتقل» ومتى سنحت الفرصة للقوة المعتقلة أو المقموعة، انطلقت من عقالها تطلب الاشباع بحدة .. وهذا مايسمى بالانحراف الكامن

وهذا الانحراف الكامن لا يلبث أن يغدو انحرافا ظاهرا متى وجد مايثيره بصفة مستمرة

واذا جعلنا من همنا علاج هذا الجانح أو المنحرف ، فيجب أن نضع نصب أعيننا ان ذلك العلاج انما هوبمثابة اعادة لتربيته وتهذيبه من جديد

والآن يجب قبل أن نخطو خطوة أخرى الى الامام فى اتجاه استخدام العلاج النفسى فى التربية، ينبغى ان نتمهل قليلا لنعرف أهداف التربية على العموم .. تربية الناشئين جميعا لا المنحرفين فقط

واذا استعرضنا نظريات التربية بوجه عام وجدنافيها نظريتين هامتين .. النظرية الاولى ترجع نمو الطفل الى عوامل الوراثة دون غيرها ، وفى هذه الحالة لا تستطيع التربية مهما صنعت أن تعدل من تكوين الطفل الوراثى . اما النظرية الاخرى فدعواها أن التربية تستطيع ان تحقق أى تعديل فى وراثة الطفل ، وأن تصل به الى أى صورة نريدها .. فمشكلات الوراثة لا تقف فى سبيل التربية الصحيحة

وليس فى استطاعتنا أن نفصل فصلا معقولا فى هذا النزاع بين النظريتين قبل أن نلم بتاريخ التطور البشرى الماما عاجلا ..

وأول ما يلفت النظر فى الانسان البدائى أنه عنى اول ما عنى بتنمية قدرته المحدودة كى يستطيع مواجهة الواقع القاسى من حوله ويتجنب الفناء . وكان هذا الدرس هو أول ما تعلمه البشر من دروس الحياة .. ومفاد هذا الدرس أن الانسان ينبغى أن يتعلم كيف يتحمل الآلام ، وأن يمتنع عن اشباع رغبةعاجلة اما امتناعا مؤقتا أو نهائيا ، وأن يستخدم دوافعه الغريزية فى اتجاهات معينة تجنى له النفع أو تحميه من الاذى

وكان الدرس الثانى ـ بعد تكييف غرائزه لتلائم الواقع المادى من حوله ـ أن يلائم بين سلوكه الغريزى وبين المجتمع الذى يحيط به من الناس الذين يشاركونه فى بيئة مادية واحدة

وفى هذا الاتجاه تعاقبت اجيال كثيرة على الانسان ، وظهرت بالتدريج معالم المدنية القديمة .. وهى فى خلاصتها تمثل الخطوات الثابتة المنتظمة التى خطاها الانسان القديم بمجهود شاق فى طريق السيطرة على الطبيعة . وفى هذا السبيل دفعته الحاجة الى الابتكار والاختراع والتفنن .. فكان هذا التراث من الخلق الفنى والكشف العلمى والتنظيمات الاجتماعية

وفى هذا المستوى البدائى من الحضارة لا توجد الا قيود قليلة هينة على الاشباع المباشر للغرائز . ولكن هذه القيود تزداد قوة وعددا مع ازدياد مراحل الحضارة وارتفاع مستواها ، لأن المطلوب من الفرد فى هذه الحالة ليس الاسهام فى منافعه الخاصة فحسب ، وحماية نفسه فقط من الغوائل .. بل يكون المطلوب منه هو الاسهام أيضا فيما يعود على جيله كله بالخير والتقدم ..

وهذا ما يمكن ان يسمى بالطاقة الحضارية للانسان ..

وهذه الطاقة الحضارية يختلف مقدارها بحسب مستوى الحضارات .. أما الطاقة الانانية وهى مجهود الفرد فى الانتفاع من الواقع المحيط به والاحتماء من اخطاره ، فهى طاقة ثابتة لا تتغير تغيرا كبيرا بتقدم الحضارة

واذا نظرنا الى الطفل وجدناه فى صغره قليل القدرة على منع نفسه بنفسه من اشباع غرائزه والتكيف بقيود الحياة الاجتماعية وأوامرها .. ولكن التجارب المتوالية

ـ وهى تجارب لا تخلو فى الغالب من ألم له ـ تعلمه شيئا فشيئا كيف يحد من اندفاع نفسه نحو تحقيق غرائزه تحقيقا مباشرا ، وأن يرضخ لأوامر المجتمع ونواهيه ويمتنع عن المقاومة شيئا فشيئا حتى يصبح بالتدريج فى نهاية الامر مخلوقا اجتماعيا بمعنى الكلمة

وهذا الطريق الطويل الذى يتدرج فيه الطفل من اللذة الغريزية الاولية ـ وهو رضيع ـ حتى يصل الى النضج وحسن التكيف مع الواقع ، شبيه جدا بالطريق الذى درجت فيه الانسانية من طفولتها الاولى قبل التاريخ حتى عصرنا الراهن

والطفل حين يولد يخرج الى عالمنا مزودا بآثار التجارب والخبرة التى حصلتها الاجيال السابقة على ولادته . وهذا هو ما يسمى بالمواهب الوراثية .. ولكن هذه المواهب الوراثية لا تكفيه كى يتكيف بسهولة مع المجتمع الذى يولد فيه وينشأ فى اطاره .. بل على الطفل أن يستغل مواهبه الوراثية وقدراته الفطرية ويوجهها مهتديا بالتجربة والخبرة والتربية . فالطريق الوحيد لتحضر الانسان هو طريق التجربة والتدريب ، ليس الا .. فالحياة تدفع الانسان وتحمله على أن يتكيف مع الواقع المحيط به . والتربية هى التى تمكن ذلك الانسان من تحقيق هذا التكيف عن طريق تحصيل الحضارة ..

ومصداق هذا ما نلاحظه فى حياتنا اليومية ..

ان الطفل الصغير حين يحاول الصعود فوق مقعد فيسقط على الارض ويتألم .. يتعلم عن طريق هذا الالم بصورة مباشرة درس الحذر والحرص من غير حاجة الى تدخل المربى بعبارات لفظية خارج اطار هذه التجربة المباشرة

وبهذا القبيل من استخدام غريزة الطفل فى المحافظة على ذاته وتجنب الالم ، يتعلم الطفل شيئا فشيئا مزيدا من التكيف الاجتماعى

والتربية فى جوهرها ان هى الا وسيلة للكشف عن الامكانيات الموجودة لدى الطفل فعلا واستغلالها .. وليس فى وسع التربية ان تضيف شيئا جديدا الى هذه الامكانيات لم يكن موجودا من قبل . والطفل الذى ينشأ بغير تهذيب لائق هو الطفل الذى لم تستغل التربية امكانياته الفعلية استغلالا مناسبا بحيث يتجه الى التكيف بالنظام الاجتماعى وهذا الطفل الذى ساء تهذيبه ، أو أهملت تربيته ، يجد نفسه فى حالة صراع مع المجتمع الذى يعيش فيه

وهذا هو ما يتمثل بوضوح فى الطفل المنحرف وفى أزمات الشباب . وتبدأ مهمة التربية العلاجية عندما نشعر بأن ثمة مشكلة تربوية ، أى عندما نتبين ان الوسائل التربوية العادية المجدية مع بقية الاطفال أو الشبان لا تفلح فى تنمية القدرة الاجتماعية اللائقة لدى طفل معين أو لدى شاب بالذات

***

والتربية العلاجية هى اعادة للتربية الخاطئة على أساس سلبى . وهى لا تختلف فى هدفها عن التربية العادية ، لأن الغرض فى الحالتين هو وضع الناشىء فى موضع متلائم مع سائر النظام الاجتماعى من حوله . ولكن كى نهتدى الى موضع الخلل فى تربية الناشىء ، يجب أن نستخدم منهج التحليل النفسى

ومنهج التحليل النفسى ابتكار علمى اهتدى اليه سيجموند فرويد ، وهو يقوم بعلاج المصابين بأمراض عصبية .. اذ اكتشف أن الانفعالات القوية التى لها سند

من الغريزة اذا ما كبتناها لم تنعدم ولم تتلاش ، بل تكمن فى داخلنا وتتحين الفرصة للتعبير عن نفسها بصورة منحرفة ، مختلفة الاشكال والالوان

ولاحظ هذا العالم النابغة أيضا أن الانفعالات المكبوتة حين تختار صورة للتعبير عن نفسها من صور السلوك ، انما تصدر فى ذلك الاختيار عن قانون معروف من قبل فى عالم الميكانيكا ، وهو ان الطاقة تسلك أقل الطرق مقاومة .. وهو القانون المسمى بقانون المجهود الاقل

وتختلف هذه الصور باختلاف الاشخاص والمواقف.. فهناك مثلا شخص ينفس عن انفعالاته المكبوتة فى صورة نشاط مفرط فى افراز الغدد .. كالبكاء والعرق. وهناك شخص آخر ينفس عن انفعالاته المكبوتة فى صورة نشاط حركى كالصراخ والضرب والتلويح باليدين . وهناك شخص ثالث ينفس عن هذه الانفعالات عن طريق أوعيته الدموية فيحمر وجهه خجلا أو يصفر . أما الشخص المتزن فلا يليق به أن يسمح بهذه المظاهر الحركية أن تفضح سريرته .. وهذا ما يسمى بكبت الموقف الانفعالى

ومعنى الكبت هو أن يزج الشخص بالموقف الانفعالى من مستوى الشعور الى اغوار اللاشعور . ومتى دفن الموقف فى اللاشعور لم يلفظ أنفاسه ، بل حاول أن يسلك فى التنفيس عن نفسه سبيلا آخر غير السبيل المباشر الذى أقفل فى وجهه

والقوة الخاصة التى نستعين بها لاقصاء الاشياء غير المرغوب فى التعبير عنها من الشعور الى اللاشعور ، هى بعينها نفس القوة التى تحول بين الاشياء المكبوتة وبين الدخول الى مسرح الشعور .. وهى التى تسمى بقوة المقاومة الشعورية

وكما اكتشف فرويد اللاشعور ، اكتشف أيضا عندما تعمق فى البحث أن العمليات العقلية كلها متداخلة فيما بينها مرتبط بعضها ببعض .. وأن كل عملية عقلية وكل موقف نفسى انما هو نتيجة لتفاعل بين مختلف القوى النفسية

وهذه النظرية ضرورية جدا لفهم كيفية تحكم العمليات اللاشعورية فى سلوك الشخص . وعلى ضوء هذا الفهم يسهل على المربى أن يكشف عن المصادر الخفية للانحراف وأن يضع يده على النقطة الاولى التى يبدأ منها العلاج الصحيح

وتكون الخطوة الاولى من خطوات العلاج بعد ذلك هى استخراج العمليات اللاشعورية التى سببت الانحراف الى مسرح الشعور ..

وليكن فى علمنا أن المصاب بانحراف نفسى ، أو بمرض نفسى ، كلاهما لا يدرك على الاطلاق سر العلاقة بين سلوكه الظاهرى المنحرف واسباب هذا السلوك الغائر فى اللاشعور

***

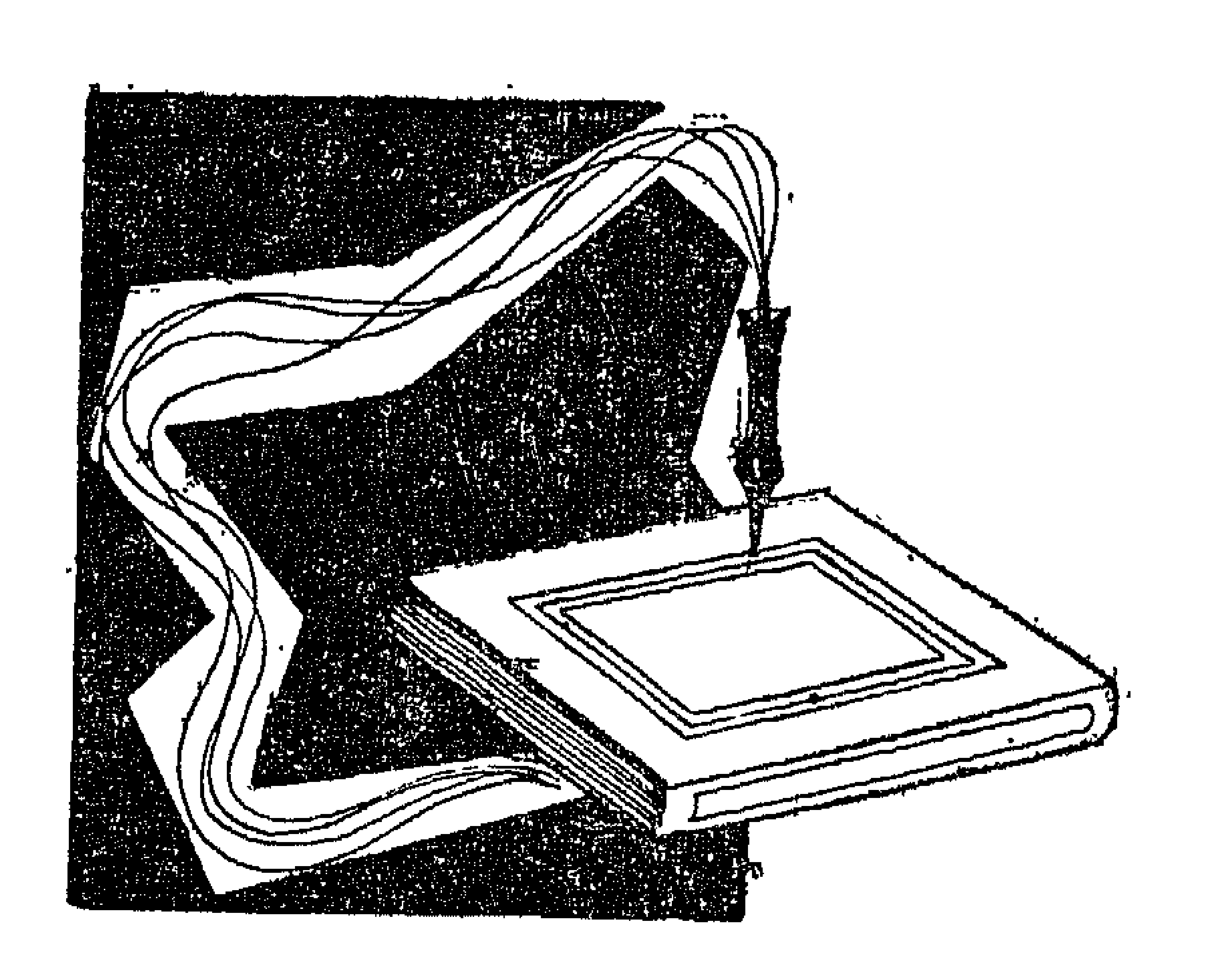
ان التربية فن .. وأهم عناصر هذا الفن هما البصيرة وصدق الالهام أو الحدس ..

واذا كان هذا صحيحا فى التربية بوجه عام ، فهو أصح وأكثر انطباقا على التربية العلاجية .. فبقدر ادراك المربى المعالج لمشكلات الشباب المنحرف ، ونفاذ بصيرته يكون نجاحه فى مهمته ، وتوفيقه فى العلاج . ومما لا خلاف عليه أن مهارة المربى والمامه بأصول التربية من عوامل تمكينه من النجاح وزيادة حظه من التوفيق .. فاذا

ما تزود المربى فوق هذا كله بالدراية بخفايا الحيل النفسية التى اماط اللثام عنها التحليل النفسى فانه يبلغ من التوفيق غاية مداه

ومع هذا فواجب الامانة يدعونى فى ختام هذا التمهيد الى كلمة تحذير :

يغالي المربون فى تجسيم أهمية علم النفس فى التربية العلاجية حتى انهم يعتبرونه أحيانا العامل الاخطر ان لم يكن الاوحد .. ويجب ألا يغيب عن ابصارنا أن العمل العلاجى الكامل فى التربية ، شأنه فى ذلك شأن التربية العادية الكاملة ، يجب أن يحسب فيه حساب عناصر كثيرة أخرى منها العامل الطبى ، والعامل الاجتماعى ، والعامل الاقتصادى ، والعامل الثقافى



الفصل الأول

القوة الكابتة والقوة المكبوتة



أحد الاعراض

ويجدر بى أن اعترف هنا أن العمـل مع الاطفـال والناشئين قد استغرق الجزء الاكبر من حياتى العملية .. ولهذا صرت أعتقد أن بيان الناحية النظرية من غير تطبيقات عملية واقعية سيكون غامضا وعديم القيمة . ولذا سـألجأ مباشرة الى مواجهة موقف من المواقف الواقعية فى تحديد احد أعراض الانحراف لدى الشـباب

والحالة التى سنبدأ بها تعتبر من الحالات العـادية البسيطة التى يفد أصحابها على العيـادات الخارجية ، ولا يحتاج الامر فيها للاحالة على الاصلاحيات ..
جاءتنى أم ومعها ابنها البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما .. ولما استقبلتها فى عيادتى أخذت تشكو من سوء سلوكه، وبلغ من ضيقها به انها أصرت على أن تحيله الى احـدى الاصلاحيات !

وعلى حسب عادتى ، بدأت بمقابلة الام أولا على انفراد حتى لا تكون شكواها من ابنها على مسمع منه ، ولمـا سألتها عن فحوى ما يسـخطها على ابنها ، سردت على مسامعى قصة كاملة متناسقة الاحداث . ولذا لم أجد داعيا لتوجيه أسئلة كثيرة اليها أثناء السرد ..

قالت الام ان ابنها اشترى من السوق فى يوم الاربعاء صابونا وزجاجة صودا وصحيفة يومية .. وأنها عندما عادت من عملها فى المساء الفت باب المسكن مغلقا ، وابنها

غير موجود بالداخل . ثم اكتشفت انه ترك لها المفتاح لدى الجيران .. واستطردت الام تقول :

ـ وخطر لى أنه هرب .. فقد سبق له الهروب جملة مرات من قبل من غير سبب ظاهر ـ ولا تظنن أننا نسىء معاملته ، فنحن نعامله فى البيت معاملة طيبة ـ ونظرت فى كيس نقودى الذى كنت قد تركته على المائدة وبه مبلغ صغير من المال ، فوجدت محتويات الكيس كاملة لم ينقص منها شىء . وتأكدت أيضا أن النقود التى يدخرها زوجى فى سترة قديمة معلقة فى حجرة النوم باقية على حالها . مع أن الغلام يعرف هذا السر تمام المعرفة .. ولكنى اكتشفت بعد ذلك أنه أخذ شيئا من النقود من درج منضدة المطبخ ، كما استولى على جميع ما كان فى حصالة اخته

ولما لم يعد الى البيت حتى الليل أبلغت قسم الشرطة .. فسجلوا هناك مذكرة باعتباره مفقودا . ولم يعد الغلام يوم الخميس بأكمله . ولكنى عندما رجعت من عملى بعد ظهر يوم الجمعة ، وجدته واقفا قرب المنزل مقطب الوجه متجهم الاسارير ، ولكن لفت نظرى ان ثيابه نظيفة .. وأن آثار الاستحمام عليه واضحة . ولم يحاول أن يبادرنى بالكلام . ولما سألته لم أستطع أن أستخلص منه أين كان مختفيا أو ماذا صنع بالنقود . ولم أزل جاهلة بهذه الامور حتى الآن . وصحيح اننى لم أزجره ولم أؤدبه بالضرب ، ولكنى أشعر انى صرت عاجزة عن عمل أى شىء فى سبيل تقويمه .. وأن الواجب يقضى بايداعه مدرسة تابعة لاحدى الاصلاحيات

وبعد أن فرغت الام من حكايتها استفسرتها عن ظروف بيتها .. فكانت صريحة معى كل الصراحة ، فأخبرتنى

انها تزوجت منذ خمس عشرة سنة من رئيس (مقدم) عمال فى احد المصانع ، وأن زواجهما موفق .. وانها شخصيا تشتغل فى احدى مؤسسات المدينة فى تطريز المفروشات المنزلية

ولما سألتها بتدقيق :

ـ الا تحدث اطلاقا اى خلافات عائلية بينك وبين زوجك ؟

أجابتنى ببساطة :

ـ خلافات عارضة مثل التى تنجم بين أى زوجين ..
ولما سألتها عن علاقة ابنها بها قالت :

ـ علاقة طيبة .. فأنا واثقة انه يحبنى اكثر من حبه لابيه . مع ان زوجى يتهاون معه اكثر مما يجب ، فيتركه يعمل مابدا له ولايضربه مهما صنع .. حتى أننى كثيرا ما كنت اصطدم بزوجى لهذا السبب ،ولكن بلا فائدة .. فزوجى رجل عصبى المزاج اذا اثاره شىء من كلامى غادر المنزل ، وغاب عنه بضع ساعات قد تطول الى منتصف الليل . ثم اننا لا نجد من وقتنا متسعا كبيرا للاهتمام بأمور أولادنا لان كلا منا مشغول معظم الوقت فى العمل

ـ وأيام الآحاد ؟

ـ الحقيقة ان زوجى شغوف بصيد السمك .. ولذا يخرج كل يوم أحد للصيد . وأحيانا يصطحب الفتى معه .. أما الفتاة فتلازمنى فى البيت لتقوم بقضاء الحاجات والتنظيف واصلاح الثياب

ومسكن الاسرة يتكون من ثلاث غرف .. الفتى ينام وحده فى حجرة صغيرة ، وتنام الفتاة مع أبويها . ولما سألت الام عن أحوال الفتاة ومبلغ رضاها عنها قالت :

ـ انها صغيرة تبلغ من السن سبع سنوات . وتسير في مدرستها سيرا مرضيا . وعندما تعود من المدرسة تبدى همة كبيرة فى معاونتى لانجاز أعمال البيت ، وهى دمثة الخلق .. فاذا نجم بينها وبين أخيها شجار ، أبدت الفتاة ميلا للاذعان لاخيها بسرعة قد أراها أحيانا أكثر مما ينبغى

ورأيت أن أستوضحها نقطة أخيرة .. وهى :

ـ هل يوجد أى سبب مباشر لهروب الفتى هذه المرة ؟

ـ لم يحدث شجار أو شقاق من أى نوع على الاطلاق قبل هروبه هذه المرة .. ولم يقترف أى شىء يخشى بسببه العقاب

ـ ألا يوجد أى سبب آخر يمكن أن يكون قد أدى لبث الخوف فى نفسه ؟

ـ لا اعرف أن سببا كهذا له وجود ..

ـ ألا يوجد لديك أى تفسير لهروبه هذه المرة من المنزل ؟

ـ كلا ..

ـ الا تعتقدين ان غلمانا آخرين أغروه بالهرب مثلا ؟

ـ لا أعتقد هذا .. اذ ليس لابنى أصدقاء ..

ـ ولا واحد ؟

ـ واحد فقط .. وهو من عائلة طيبة . وأحب أن انوه فى هذا الصدد بأن ابنى ليس مغرما بالنزول الى الشارع

واستطعت أن أضيف من استجوابها الحقائق التالية أيضا :

١ ـ صحة الابوين سليمة ..

٢ ـ لا توجد فى أصول الام أو الاب حالات جنون ، أو ادمان الخمر ، أو أى سوابق جنائية ، أو ميل الى الانحراف

٣ ـ كان نمو الغلام عاديا فلم يصب فى طفولته بالتشنج العصبى ، ولا يوجد ما يدل على الاشتباه فى اصابته بمرض نفسى

وبعد أن فرغت من الام ، طلبت اليها أن تبقى فى غرفة الانتظار ريثما أدعوها بعد الانتهاء من مقابلة الغلام . وأكدت لها أنه سيكون فى وسعى بعد الانتهاء من الاجتماع به ، أن أفتيها فى أمر ابنها وارشدها الى ما ينبغى عليها أن تقوم به لعلاجه

***

وابادر فأقول ان الفتى ترك فى نفسى منذ الوهلة الاولى أثرا طيبا .. فمظهره ليس فيه ما يدل على انحراف ، بل انه على نقيض ذلك تماما كان يبدو نموذجا حسنا للمهذبين من أبناء الطبقة الوسطى

وأول ما لفت نظرى فيه أنه أطول بكثير من المفروض فى سنه .. ولكنه رغم طوله المفرط ، لم يكن هزيلا .. بل كان قوى العود . وكان وجهه فوق جسمه النامى ، مستديرا كوجوه الاطفال الصغار ، يشرق بالابتسام باستمرار .. ولاحظت انه شديد العناية بتصفيف شعره الاسود اللامع . وألقيت نظرة خاطفة على يديه ، فوجدتهما يماثلان وجهه فى شدة النظافة . وكان يرتدى كسوة من طراز البحارة ناصعة البياض ، فزاد ذلك من شعورى انني بازاء فتى ناضج ..

وبدأ الفتى بتحية مهذبة .. ثم جلسنا معا الى منضدة جانبية فى حجرة مكتبى . وسأذكر هنا الجانب الهام من حديثنا بحروفه ، أما الجانب الآخر فسوف أكتفى فيه بالتلخيص

واحب أن أذكر بهذه المناسبة أن جميع المقابلات التى تتم فى العيادة مقابلات « مقفلة » لا يحضرها أى انسان مع الفتى موضوع الفحص ..

وكانت وجهة نظر الفتى فى علاقة كل من أبويه بالآخر ، أن الانسجام بينهما لم يكن موفورا .. لان التفاهم بينهما كان متعذرا فى مناسبات كثيرة لاختلاف وجهتى نظرهما فى معظم الامور

وروى ان أمه أسرع الى الغضب من أبيه .. وحينما تغضب الام يغادر الاب المنزل ولا يعود اليه الا بعد ساعات طويلة

وذكر الفتى لى احدث مشاجرة بين الابوين .. وكان ذلك يوم السبت . فما كان من الرجل الا أن حمل أدوات صيد السمك ومضى بها الى الريف . وكان المفروض أن يرجع فى المساء كالمعتاد كلما خرج للصيد ، ولكنه فى هذه المرة لم يرجع الا مساء الاحد

وصور الفتى بدقة قلق أمه البالغ لغياب زوجها ، وكيف أنها كانت تخشى أشد الخشية أن يكون قد ألم به مكروه

ولما وجهت اليه الحديث نحو علاقته بأبويه ، عرفت منه أن شعوره متأرجح بين الحب والبغض .. فحينما تشتد عليه وطأة الام يتجه بعواطفه نحو الاب . وعندما يأبى الوالد ان يصحبه عند خروجه لصيد السمك يتذمر

ويسخط ويشكوه لامه . ولكن كان واضحا حتى بالنسبة للفتى أن حبه لأمه أكثر من حبه لابيه

ولفت نظرى أنه كان حريصا بعد تأكيد تفضيله لامه أن يذكر لى ان هذا لا يمنـــع من أن يرى أباه على حق عندما يترك لها المنزل على أثر المشاجرات السخيفة التى تثيرها فى البيت

وانتقلت الى سؤاله عن أخته ، فذكر لى أنها ليست دائما على ما يرام بالنسبة له .. وكثيرا ما يغاضبها . وذكر أيضا أن أمه تنحاز دائما الى صف الفتاة كلمـــا اختلف معها

وفى مساء الثلاثاء .. وهو اليوم الســـابق على يوم هروبه مباشرة ، قدمت الام للفتاة مبلغا من النقود كى تبتاع حذاء جديدا . ولم يخطر لها أن تعطيه مبلغـــا مماثلا ليشترى حذاء لنفسه .. مؤكدا أن احتياجه الى حذاء جديد أشد من احتياج أخته الى الحذاء . ولمـا غضب لم تستطع أمه أن تتبين لغضبه مبررا

وانتقل الحديث الى الدرجات المدرسية .. فصارحنى أن أخته تحصل فى المدرسة على مستوى من الدرجات أعلى من مســـتوى درجاته . أما هو فكان صريحا فى التطوع بالاعتراف لى بأنه يكره الذهاب الى المدرسة ، ويتمنى لو هجرها ليشتغل ميكانيكيا

ولمـا سألته عن أصدقائه ، قال انهم قلة .. ولكنه حرص على أن يذكر بحرارة أنه يحب واحدا منهم يماثله فى العمر محبة شديدة

وسألته عن نزوله الى الشارع ، فقال انه قلما ينزل .. بل انه من الناحية العملية لا ينزل اطلاقا الى الشارع

ما لم يطلب منه هذا الصديق المحبوب النزول للنزهة بعض الوقت

وسألته اين يتنزهان عادة ، فقال انهما يذهبان احيانا الى السينما .. فسألته عن أحب أنواع الافلام اليه . فقال انه يفضل افلام الرحلات ، وقال بهذه المناسبة ايضا أنه يهوى قراءة كتب الرحلات

ولما سألته عن علاقة الرحلات برغبته فى أن يشتغل ميكانيكيا اتسعت ابتسامته وصارحنى بأن السبب الوحيد الذى يجعله يختار مهنة الميكانيكى هو يقينه من عدم ترخيص أبويه له بالاشتغال بحارا على ظهر احدى السفن

وعند هذا الحد ينتهى الجانب الملخص من الحديث الذى دار بينى وبين الفتى . ويهمنى أن أذكر بعد ذلك تفاصيل الحوار الحرفى الذى دار بيننا حول موضوع هروبه من البيت ، لان هذه التفاصيل ستبين طريقة الفحص المتعلق بتلك الحالة ..



خيوط اللغز

ودار بيننا الحديث على هذا النحو :

ـ فى أى يوم هربت من المنزل ؟

ـ فى يوم الاربعاء ..

ـ فى أى وقت بالضبط ؟ صباحا أم مساء ؟

ـ لا أذكر بالضبط .. وعلى كل حال لم يكن هذا فى ساعة مبكرة . ولعله كان قبيل الظهر ، قبل وقت الغداء

ـ وأين كنت عندما فكرت فى الهرب ؟

ـ فى البيت .. ومن هناك انطلقت

ـ وهل كان معك فى البيت أحد ؟

ـ لا .. كنت وحدى ..

ـ وأين كان الباقون ؟

ـ أمى كانت فى الخارج ، وأبى كان فى المصنع ، وأختى كانت فى المدرسة . وليس هناك سوى هؤلاء ..

ـ وهل اغضبك شىء فى هذا اليوم أو كنت تخشى شيئا ؟

ـ كلا ..

ـ لعل شيئا حدث فى مساء الثلاثاء عشية الهرب ؟

ـ كلا ..

ـ وماذا صنعت مساء الثلاثاء ؟

ـ ذهبت الى مخزن البقالة .. لان أمى كانت قد أعطتنى نقودا وكلفتنى بشراء أشياء معينة فجئت بها ووضعتها فى درج المنضدة .

ـ جميل .. والآن حاول أن تتذكر جيدا .. الم يحدث شقاق بين أبيك وأمك مساء الثلاثاء أو صباح الاربعاء ؟

ـ كلا ..

ـ الم يكن أبواك ساخطين عليك مساء الثلاثاء أو صباح الاربعاء ؟

ـ كلا ..

ـ ألم يحدث سوء تفاهم بينك وبين أمك ؟

ـ كلا ..

ـ ولا نزاع بينك وبين اختك ؟

ـ آه حصل ...

ـ ما موضوعه ؟

ـ غضبت منها لانها كانت ستشترى حذاء لها قبل ان يشتروا لى حذاء جديدا ..

ـ أذكر التفاصيل كلها ..

ـ أعطتها أمى مبلغا ، فوضعته أختى فى حصالتها ..

ـ ولماذا ؟

ـ لا أدرى .. وهذه النقود أخذتها أمى من درج المنضدة

ـ وهل فكرت فى الهرب مساء الثلاثاء عقب هذا الغضب ؟

ـ كلا ..

ـ متى فكرت اذن فى الهرب ؟

ـ لم أفكر فيه قبل يوم الاربعــاء ثم انطلقت على الاثر
ـ وماذا فعلت قبل الهرب ؟
ـ أخذت بعض الاشياء وأوصلتها الى مكان وجود أمى فى الخارج
ـ ما هذه الاشياء ؟ ..
ـ صودا وصابون وجريدة يومية ..
ـ وأين كانت أمك ؟ ..
ـ فى محل الغسيل .. وبعد أن أعطيتها هذه الاشياء عدت الى المسكن مباشرة ..
ـ وهل القيت نظرة على الصحيفة قبل أن توصلها اليها ؟
ـ نعم ..
ـ وما الذى قراته فيها ؟ ..
ـ قرأت موضوعا عن رجل ضل بين الجبال ..
ـ وعندما حملت الى أمك هذه الاشياء هل أسخطك منها شيء ؟
ـ كانت ساخطة بسبب مسألة الطوابع ..
ـ وما مسألة الطوابع ؟
ـ سرق من صــديق لى بعض الطوابع .. فظنوا انى انا السارق ..
ـ ومن هم الذين ظنوا هذا الظن ؟
ـ الجميع .. حتى أمى أيضا ..
ـ وهل كنت ساخطا على أمك ؟
ـ طبعا .. وقلت فى نفسى « انها متعبة للغاية »
ـ وماذا فعلت عندما عدت الى المنزل ؟

ـ صنعت « ساندوتش » من الخبز والجبن .. وأكلته
ـ وأين كنت واقفا بالضبط ؟
ـ أمام النافذة ..
ـ فى المطبخ أم فى البهو ؟ ..
ـ فى البهو ..
ـ هل لفت نظرك شىء فى الطريق ؟
ـ النافذة تطل على الفناء .. ولم يكن فيه الا كلب صغير ، فألقيت اليه بقطعة من الساندوتش ..
ـ أرنى كيف كنت واقفا أمام النافذة ..
فوقف الفتى واعتمد على المنضدة بمرفقه .. وتركته فى هذا الوضع كى يساعده على استعادة الذكريات . وسألته :
ـ وماذا حدث بعد أن رميت اللقمة للكلب ؟
ـ خرجت بعد ذلك وذهبت ..
ـ تمهل قليلا ، ولا تسرع فى خطوات السرد هكذا .. لقد وقفنا ـ فى سرد الحكاية ـ عندما كنت مطلا من النافذة وأنت متكىء على حافتها . وقد فرغت من أكل الساندويتش ، ورميت لقمة منه للكلب .. والآن حاول أن تراجع نفسك وتتذكر لماذا بالضبط خطر لك فجأة أن تهرب ؟
ـ لا أدرى
ـ هل طرأت لك الفكرة وأنت تأكل ؟
ـ طرأت بعد ان انتهيت من الاكل ..
ـ ماذا قلت لنفسك بالضبط ؟
ـ قلت لنفسى : سأذهب الى جهة « تولن »
ـ ولكن لماذا الى جهة « تولن » بالذات ؟

ـ لان هناك غابات ، وكنت أريد الذهاب الى الغابات
ـ ولكن ألا توجد غابات فى جهة أخرى غير «تولن» ؟
ـ توجد .. ولكنى كنت أنوى أن أحضر من هناك شيئا من ثمار الكرز لاجل امى ..
ـ ولماذا تحضر هذه الثمار من « تولن » بالذات ؟
ـ لان أبى يملك هناك أشجارا للكرز ..
ـ ومن أين لك أن تعرف هذا ؟
ـ لانى كنت مع أبى عندما عاينها واشتراها .. والى هذه الجهة كنت أصحبه عادة كلما خرج لصيد السمك
ـ والآن فهمت .. ولكن ما الذى جعلك تفكر فى احضار ثمار الكرز لامك فى هذه اللحظة ؟
ـ لانى رأيت على حافة النافذة بضعة من نوى الكرز ..
ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟
ـ ذهبت الى المطبخ واعددت لنفسى أربعة ساندوتشات كبيرة من الخبز والجبن
ـ وبعد ذلك ؟
ـ أخذت شيئا من نقود أمى .. وأخذت معى حقيبة صغيرة
ـ وأين كانت نقود أمك التى أخذتها ؟
ـ فى درج منضدة المطبخ ..
ـ هل أنت واثق مما تقول ؟
ـ نعم ..
ـ فكر جيدا ..
ـ استوليت على كل ما كان فى الدرج من النقود
ـ وهل كان هذا المبلغ كل ما استوليت عليه ؟
ـ استوليت على نقود أخرى من حصالة أختى ..

ـ وأين كانت الحصالة ؟

ـ فى صندوق بالبهو ..

ـ وهل كان هذا الصندوق مقفلا بالمفتاح ؟

ـ نعم ..

ـ وكيف اذن فتحته ؟

ـ كنت أعلم ان المفتاح فى كيس نقود أمى

ـ وأين كان كيس نقود أمك ؟

ـ على منضدة فى البهو ..

ـ وهل كان بالكيس نقود ؟

ـ نعم ..

ـ كم ؟

ـ لا أدرى ..

ـ هل أفرغت كل ما فى حصالة اختك من نقود أم تركت لها شيئا من المال ؟

ـ لم استول عليها كلها . .

ـ لماذا ؟

ـ لانى لم اكن بحاجة الى اكثر من ذلك لمصاريف رحلتى ..

ـ وهل كنت تعرف أن هناك مبالغ أخرى فى مواضع أخرى من البيت ؟

ـ نعم .. ففى حجرة النوم سترة قديمة لابى يحتفظ فى جيبها الداخلى بمدخراته داخل محفظة قديمة ..

ـ وهل كان باب حجرة النوم مغلقا ؟

ـ نعم ولكن مفتاحها كان فى القفل ..

ـ أليست لك انت ايضا حصالة ؟

ـ بلى ..

ــ لماذا اذن لم تأخذ ما فيها من نقود ؟
ــ لاني كنت حريصا على ادخارها ..
ــ وكيف سمحت لنفسك أن تستولى على نقـــود أختك ؟
.. وهنا لاذ بالصمت .. ولم يجب .. فقلت له :
ــ الا تريد أن تخبرنى ؟
واستمر فى صمته .. فعاودت سؤاله :
ــ وبعد أن أخذت النقود من حصـــالة أختك ، ماذا حدث ؟
ــ وضعت الساندوتشـــات فى جيبى واغلقت باب المسكن
ــ وهل أخذت معك المفتاح ؟
ــ كلا .. لقد أعطيته للجيران .. ثم انصرفت
ــ الم تكن تخشى أن تقابلك أمك على السلم ؟
ــ كلا .. لأن أمى قالت لى عنـــــدما حملت اليها الاشياء في المغسلة انها يجب أن تسرع عسى أن تنتهى فى وقت يسمح لها باعداد الغداء
ــ وماذا كان المفروض أنها ستصنع لاعداده ؟
ــ لا أدرى بالضـــــبط .. ولكنها كلفتنى أن أضع الطعام فى القدر على الموقد ريثما تعود
ــ وهل نفذت ذلك ؟
ــ كلا ..
ــ والى أين ذهبت عقب مغادرة البيت ؟
ــ الى المحطة ..
ــ هل ذهبت اليها سائرا على قدميك أم فى الترام ؟
ــ سائرا على قدمى ..
ــ وماذا فعلت هناك ؟

ـ اكتشفت انه يجب أن انتظر ساعتين ..
ـ فماذا فعلت ؟
ـ جلست فوق أحد المقاعد وتناولت ساندوتشا ..
ـ وهل كان من عادة أبيك أن يحمل معه طعاما عندما يصحبك للصيد ؟
ـ نعم .. وكان على دائما أن أحمله ..
ـ ألم تكن تخشى وانت جالس هذه المدة الطويلة فى المحطة أن يضبطك أحد هناك ؟
ـ كلا ..
ـ لماذا ؟
ـ لأن أحدا من أهل بيتنا لا يذهب الى هذه المنطقة
ـ ولما ركبت القطار كيف عرفت أنك بلغت « تولن » ؟
ـ أنا أعرف محطتها جيدا ..
ـ وماذا صنعت عندما وصلت الى « تولن » ؟
ـ لا شىء ..
ـ هل جلست طول الوقت بالمحطة ؟
ـ كلا .. بالطبع ..
ـ ماذا صنعت اذن وأين ذهبت ؟
ـ ذهبت مباشرة الى الغابات
ـ وهناك ماذا صنعت ؟ لابد انك صنعت هناك شيئا ؟
ـ أدرك ما ترمى اليه . . انك تريد أن تسألنى هل ارتكبت هناك شيئا ما ..
ـ أنا أسالك ماذا صنعت فى الغابات ؟
ـ وجدت هناك أشجار الكرز ..
ـ وهل جنيت شيئا منها ؟

ـ كلا ..

ـ لماذا ؟

ـ لانه لم يكن قد تم نضجه ..

ـ ولما لم تحقق الغـرض من رحلتك ؟ .. مـــــاذا فعلت ؟

ـ خفت أن أعود الى البيت ..

ـ فماذا صنعت ؟ ..

ـ أخذت أجوس خلال الغابة ..

ـ لمــاذا ؟

ـ لأجمع ثمار الشليك .. وهناك أيضـــا وجــدت أشجار كرز أخرى غير التى يملكها أبى فجنيت منها بعض الثمار الناضجة وأكلتها

ـ وهل جئت لامك بشىء من هذه الثمار ؟

ـ كلا ..

ـ وكم من الوقت قضيت فى الغابة ؟

ـ بقيت الى أن ساد الظلام، وأخذ المطر يتساقط..

ـ واين قضيت ليلتك ؟

ـ فى حظيرة وجدتها هناك ..

وعندئذ انطلق لسانه من تلقاء نفسه يسرد تفاصيل دقيقة عن كيفية قضائه تلك الليلة ، وكيف كان يحاذر أن يكتشف وجوده أحد منأهل المزرعة .وصور شعوره بالوحدة والوحشة لانه قضى الليل راقدا بمفرده فوق كومة كبيرة من القش ..

وكان فى أول الليل يخشى على الخصوص أن يستغرقه النوم فلا ينهض فى ساعة مبكرة ويكتشفه المزارع نائما فى

حظيرته .. فأدى هذا الخاطر الى أرقه طول الليل . وما ان ظهرت اولى تباشير الصباح حتى غادر الحظيرة . وبقى فى الغابة مختفيا رغم استمرار المطر طول النهار ، خشية أن يضبطه أحد اذا دخل أى مبنى ..

ولما سألته ، هل فكر هذا اليوم فى البيت أو شعر بالحنين اليه ، قال ان البيت لم يخطر على باله كثيرا .. بل كان كل همه منحصرا فى امكان قضائه الليلة التالية أيضا فى نفس الحظيرة فوق كومة القش

وبعد أن ساد الظلام تسلل بالفعل الى الحظيرة ، وصعد فوق كومة القش من غير أن يحس به أحد . وفى تلك الليلة ـ على خلاف الليلة السابقة ـ نام نوما هادئا ، ولم يستيقظ الا بعد طلوع الشمس ..

واضطر لهذا السبب أن ينتظر مغادرة المزارع للبيت الى الحقول ، ثم يتسلل الى الغابة ..

ولما سألته عن النقود التى بقيت بعد ثمن تذكرة السفر ، قال لى أنه لم ينفق منها شيئا بل أبقاها لتذكرة العودة . وكان غذاؤه مقتصرا على بعض ثمار الشليك والكرز والساندوتشات الثلاثة . وقد أكل الاخير منها فى يوم الجمعة صباحا .. فوجد الخبز صلبا

واعترف أن الجوع هو الذى حمله على العودة الى البيت . وأنكر أنه شعر بأى ندم أثناء العودة .. اما الخوف من العاقبة فلم يشعر به الا حينما اقترب من البيت

ولما دخل المسكن لم يجد هناك أحدا سوى أخته .. فأخبرته أن أمهما ستعود بعد قليل من عملها ، وأن

والديه ساخطان عليه سخطا شديدا بسبب هروبه

وترك أخته ودخل الحمام لانه كان بحاجة شـــديدة الى تنظيف نفســــــه ، ثم ارتدى ثيابا نظيفة ونزل الى الشارع ليقابل أمه عند قدومها . فلمـــا أقبلت وابصرته لم توبخه بكلام كثير ، بل كان كل ما قالته له بهدوء :

ـ أنت ابن عاق وينبغى أن أودعك الاصلاحية ...

وهكذا انتهت مقابلتى مع الفتى .. وتجمعت فى يدى خيوط اللغز . وبقى على أن أقابل أمه ، وأن أصل الى حل اللغز



وراء السر

وأطلعت الام على المبررات التى أدلى بهـــا الفتى .. فأظهرت ميلا الى التهوين من شأن ما أقدم عليه من سرقة وهرب . ولكن الامر الذى لم تستطع أن « تهضمه » هو لماذا لم يصارحها شخصيا بجميع هذه المبررات

وهذا هو السؤال الذى تحتاج الاجابة عنه الى اعــادة النظر فى القصة كلها تحت ضوء جديد ..

وأول ما يلفت نظرنا أن ما أقدم عليه الفتى ليس هينا الى الدرجة التى تتصورها أمه . ولا نحتاج الى تفـكير طويل كى نميز فى سـلوك الفتى بين ناحيتين مختلفتين تماما تدلان على مصدرين نفسيين مختلفين

وفى استطاعتنا أن نقول ان الفتى لا يبدو عليه دليــل على المرض . وليس هناك ما يدعو للقول بوجود استعداد فطرى للتشرد لديه . وكـذلك ليس فى وسـعنا أن نعلل هروبه بالخوف من توقيع عقوبة معينة عليه ، او نتيجة لشعور حاد بالقــلق . وليس لدينـا فى الوقت نفسه الا حقيقة واحــدة مقطـوع بهـا .. الا وهى تفسير الفتى لمسلكه كله على انه تحقيق لرغبة استولت عليه فى أن يأتى لأمه بشىء من ثمار الكرز

وليس خافيا انه ما من طفل فى الدنيا يجـوز لنـا أن نثق فى جميع اقواله ثقة مطلقة . وليس هنـاك ما يدعو

للاعتقاد بأن هذا الفتى شاذ عن هذه القـاعدة العـامة .
ولذا ينبغى ان نفحص أقوالهبتدقيق شديد .. فما الذى
يدرينا أنه قال الصدق فعلا ، ولا سيما أن أكثر المنحرفين
يبعدون فى اعترافاتهم عن الصـدق كثـيرا . ولكن حتى
عندما يتبين لنا الكذب بوضوح لا ينبغى أن نوبخ الطفـل
على أساس أنه نسى أو اختلط عليه الامر . ولذا يكفى أن
نقول للكاذب فى هذه الحالة :

ــ أواثق أنت مما تقول ؟

أو نقول له :

ــ فكر قليلا .. تمهل فى الاجابة ثم اخبرنى

والان نعود الى صاحبنا الصغير .. ونسأل انفسـنا
ما هو السر الكامن وراء سلوكه المتنـاقض ؟ هل كان فى
نيته فعلا ان يأتى لامه بقدر من ثمار الكرز ؟ أم ان المسألة
لا تعدو التبرير المقبول لتصرف يعلم أنه غير مقبول ؟

من المحتمل جدا انه كذب عليها ... فلو كان هـذا هو
السبب الحقيقى لمـا كان عنده مانع من الافضاء به الى
أمه .. رغم شدة غضبها ، وادراكه تمـام الادراك انها
جاءتنى به كى أرسله الى احدى الاصلاحيات ..

ولعل هـذا التبرير خطر له وهو ينتظر مقابلتى ، لأنه
اعتقد أن مثل هذا الدافع سيقنعنى بأنه « ولد طيب » .
وفى هذه الحالة لا أجد أمامى المسوغ الكافى لارسـاله الى
الاصلاحية . فمن الجائز جدا انه تدبر الامر وقال لنفسه:

ــ الموقف دقيـق .. ولكن لو أنى أظهرت شـيئا من
البراعة والذكاء لامكننى أن أخرج من المـأزق ، وأكسب
عطفهم واضحك عليهم ..

فان صح هذا لدل على انه يفهم عقلية أمه فهما صحيحا للغاية .. فهاهى قد عدلت عن رأيها السيىء فيه ، عندما علمت أن دافعه الى الهروب كان تفكيره الطيب فى ارضائها واتحافها بثمرات الكرز ..

ولكن علينا أن نتساءل أولا : هل بقية سلوكه تؤيد هذا الفرض ؟

والجواب : نعم .. فمما يدل على أن فكرة احضار الكرز لأمه مجرد تدبير طرأ على ذهنه فيما بعد ، انه قال فى البداية :

ـ كنت أريد الذهاب الى « تولن » ..

ولما دققت عليه فى ذكر السبب ، قال :

ـ لأنه هناك توجد غابات ..

ولم يذكر أشجار الكرز الا بعد ذلك .. ولو أنك رجعت معى الى تفاصيل هذا الجزء من الحديث بينى وبين الفتى لرأيت أننى حاولت أكثر من مرة أن أعرف منه متى بالضبط استقر رأيه على الذهاب الى « تولن » . وأن الحوار بيننا كان على النحو التالى :

ـ هل طرأت لك فكرة الذهاب الى « تولن » وأنت تأكل ؟

ـ طرأت بعد أن انتهيت من الاكل ..

ـ ماذا قلت لنفسك بالضبط ؟

ـ قلت لنفسى سأذهب الى جهة « تولن » ..

ـ ولكن لماذا الى جهة « تولن » بالذات ؟

ـ لأن هناك غابات .. وأنا كنت أريد الذهاب الى الغابات

ولم يذكر على لسانه موضوع أشجار الكرز الا عندما سألته :

ــ ولكن توجد غابات فى جهــة أخرى غير « تولن » ؟

ــ توجد .. ولكنى كنت أنوى أن أحضر من هناك شيئا من ثمار الكرز لأجل أمى ..

ــ ولمــاذا تحضر هذه الثمار من « تولن » بالذات ؟

ــ لأن أبى يملك هناك أشجارا للكرز ..

والآن فلنحاول أن نتبين بنزاهة ، هل ذكر لى الحقيقة أم لا . ومن الجائز أن يكون صــادقا ، لأن المطــابقة بين روايته وروايتها للوقائع تامة .. وهى غير متواطئة معه قطعا . ثم قد يضيف الى شواهد الصــدق لدى الفتى اعترافه من تلقاء نفسه باقدامه على سرقة بعض ثمــار الكرز من أشجار أخرى غير التى يملكها أبوه . ولا شك أن فتى فى ذكائه يدرك أن الاقرار بالاقــدام على السرقة قد يسىء كثيرا الى تقريرنا لمصيره ، ونحن نبحث احتمال ارساله الى الاصلاحية

ويضاف الى شواهد الصــدق أيضــا ، ما ذكره عن استعداده بحقيبة صغيرة المفروض أنه سيستخدمها لجلب ثمار الكرز ، وأنه لم يستول على نقــود أكثــر ممــا يلزم لمصروفات الرحلة المــادية . مع أن الحصــول على مزيد من النقود كان ميســورا له بكل ســهولة ، وحتى المبلغ المحدود الذى استولى عليه لم ينفق شيئا منه على ملذاته او طعامه .. بل ادخر ما كان معه هناك لمصروفات العودة

ويضاف الى هذا ما ذكره من اســتيلاء الخــوف على نفسه عندما اكتشف أنه ليس فى وسعه تحقيق غايته لأن

ثمار الكرز لم تصل بعد الى درجة النضج

ولا ينبغى أن نسقط من الحساب ذلك التأثير الحسن الذى أحدثه الفتى فى نفسى لاول وهلة عند دخوله على ..

هذا كله خليق أن يوقع فى نفوسنا أن الفتى صادق ، وأن احتمال كذبه فى روايته فى حكم المستحيل ..

ولكن يجب أن ننظر أيضا الى الموضوع من زاوية اخرى ، فليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن الفتى كان مشغول الفؤاد بمحبة أمه المفرطة فى ذلك الموقف . بل الحقيقة ـ وباعترافه هو أيضا ـ أنه كان عندئذ ساخطا عليها منذ الليلة السابقة ، لانها فى اعتقاده تحيزت لأخته وفضلتها عليه ، فأعطتها نقودا تشترى بها حذاء جديدا .. وهو يرى انه أولى منها وأحوج الى شراء حذاء جديد ..

بل انه كان بعد هذا السخط ، والى ساعة هربه أو قبلها بقليل ، يشعر بحزازة نحوها .. ظهرت آثارهاوهو يحمل اليها مطالبها فى محل الغسيل . وذلك بسبب مسألة الطوابع المسروقة من صديقه

ورب قائل ان الغلام طيب القلب ، وأنه لطيبة قلبه سرعان ما هدأت ثورة نفسه . وساعد الساندوتش على تهدئته باخماد جذوة الجوع . وعلى اثر ذلك ندم على مغاضبته لأمه المسكينة التى تعمل من أجله طول النهار ، وفكر فى استرضائها .. فجاءت فكرة احضار ثمار الكرز تحقيقا لهذا الاسترضاء

وهو فرض لا بأس به لولا وجود شواهد تناقضه . وأهم هذه الشواهد وأولها فى ترتيب الحدوث انه استولى

على ــ أو بمعنى أدق سرق ــ نقودا مملوكة لأمه فضلا عن نقود أخته . فلو صح أن جلب ثمار الكرز لاسترضاء أمه هو الدافع الوحيد الذى كان مستوليا عليه لكان الاولى به أن يشترى لها شيئا من تلك الثمار من نقوده الخاصة التى اعترف أنه يدخرها فى حصالته ، ولم يرد انفاقها فى مشروع الرحلة الى « تولن » ..

بل وهناك شاهد آخر : فهو اذ لم يجد ثمار أشجار أبيه ناضجة ، كان جديرا ألا يعود الى أمه التى يريد بصورة قوية اهداء الكرز اليها وهو خال الوفاض ، ولاشترى لها بما تبقى معه من النقود عند عودته للمدينة شيئا من الكرز يغطى به موقفه بعد الغيبة الطويلة القلقة

بلّ وأكثر من هذا .. لقد استباح لنفسه أن يسرق ويأكل ثمار الكرز من اشجار الغير ، فكان فى وسعه بكل سهولة أن يملأ لها الحقيبة التى معه بثمار تلك الاشجار عينها ..

فهل نستنتج من ذلك أن الفتى كذب علينا رغم كل شى ؟

ربما كان من الظلم له أن نرميه بهذا الحكم الشديد ، وأن يكون الدافع له الى التفكير فى الكرز ، وبالتالى الذهاب الى « تولن » .. هو مجرد ان نفسه اشتهت الحلوى ..

وأعنى بهذا أن الغلام بعد أن أكل الخبز بالجبن فكر فى شىء حلو يتناوله .. وأقول فكر . وقد لا يكون التفكير فى هذه الحالة واضحا ، وانما هو مجرد رغبة أو امنية أو اشتهاء . وفى هذه اللحظة وقعت عينه على نوى الكرز فوق حافة النافذة ، وأراد أن يبرر لنفسه الحصول على الكرز فأخفى رغبته فى صورة ملتوية ذات مظهر طيب

جميل ، ألا وهى احضار ثمار الكرز ارضاء لأمه ..

وعلينا فى هذه الحالة أن نسأل أنفسنا :

ـ هل كان اشتهاء الفتى للكرز من القوة بحيث يحمله على السرقة ؟

وهو سؤال تحوط الاجابة عنه صعوبات كثيرة ، اذا كان الجواب هو نعم .. فنحن نعلم أن الفتى تحمل متاعب ينفد منها الصبر ، أولها اضطراره للانتظار ساعتين فى المحطة ريثما يحل موعد القطار الذاهب الى « تولن » .. وأى رغبة غير عنيفة وغير مصحوبة بالاصرار الشديد لا تستطيع أن تثبت أمام ملل الانتظار الطويل لدى غلام فى سنه . وتأتى بعد هذا مشاق الرحلة نفسها .. فكان من السهل عليه قطعا أن يحقق شهوته للكرز بطريقة أقل عناء . ونحن نعلم أن الشهوة تسلك الطريق الاقصر الذى يحتاج الى جهد أقل .. ففى وسعه مثلا أن يشترى بشىء من النقود التى كانت معه أى كمية يشاء من الكرز ، أو انواعا أخرى من الفاكهة أو الحلوى .. بل كان فى وسعه منذ البداية ان يحصل على مبلغ اكبر يشبع به من شهواته ما يشاء بدلا مما عاناه فعلا فى المعيشة زهاء ثلاثة أيام على ثمار الكرز البرى ، وعلى ثلاثة ساندوتشات جافة

ونحن نعلم أن هناك سرقات يكون الدافع اليها الجوع أو اشتهاء نوع معين من الطعام اشتهاء جامحا .. ولكن الدلائل توحى بأننا فى هذه المرة لسنا أمام حالة من هذا النوع ..

وبالتالى ليس من السهل ان نجزم بأن الفتى كذب علينا .. وليس سهلا من جهة اخرى آن نقطع بأنه لم يقل الا الحق .. ولابد من تحديد موقفنا بحيث نوفق بين هذين الحكمين

والاولى أن نقول ان الفتى ــ وان لم يخبرنا الحقيقة بحذافيرها ــ الا أنه كان يعتقد أن ما ذكره لنا هو الحقيقة بحذافيرها

وهو كما ترى موقف متأرجح يزيد من حيرتنا بدلا من أن يقضي عليها .. ولا سيما اذا تذكرنا عنصراً هاما فى القضية ــ أعترف انى تعاميت عنه مؤقتا وأنا متعمد ــ وهو : لماذا أنفق الفتى النقود التى استولى عليها من حصالة أخته ، ولم ينفق شيئا من ماله الخاص أو مال أمه او مال ابيه .. مع انه كان فى استطاعته أن يستولى من تلك الاموال على ما يشاء ؟

ولحل هذا اللغز يجب أن نوجه عنايتنا الى ناحية اخرى من قصة الفتى .. فنحن نذكر أن الفتى عندما ذهب الى أمه ، وهى فى محل الغسيل حاملا اليها الصودا والصابون ، سمع منها ملاحظة لم تبعث السرور فى نفسه عن الطوابع التى فقدت من صديقه . وان الفتى غضب لالقاء التهمة أو الشبهة عليه ، وكان تعليقه على ذلك انه قال لنفسه عن أمه :

ــ انها متعبة للغاية ..

وهذا مرادف لقوله أنها لا تحبه .. وهو تمهيد كاف كى يضمر فى نفسه طلب الراحة من مضايقاتها بالبعد عنها

والان فلنحاول ان نتعقب فكرة هذه الرغبة بحرص ودقة .. ولنذكر أنه فى الليلة السابقة سخط على أمه أيضا بسبب موضوع الحذاء الجديد ، وأنها تمارى فى جدية احتياجه للحذاء .. ومجموع المناسبتين يدعوه طبعا الى عمل شيء لتغيير الموقف السخيف الذى يجد

نفسه فيه .. ولا يكون ذلك الا بالهرب ، وبالهرب الى مكان يبلى فيه ما تبقى من رمق فى حداثه ..

بيد أن هذا لا يكفى لتفسير ما أقدم عليه من السرقة عموما .. ولا لاستيلائه على نقود أخته وأمه دون أبيه . ولا يفسر أيضا انه اختار الذهاب الى « تولن » بالذات . ولا يفسر تبريره لهذا الاختيار برغبته فى احضار الكرز لأمه

قد يكون من الجائز لنا أن نعتقد أن الفتى لم يكن شاعرا بالغرض الحقيقى من هذا المسلك الذى أقدم عليه .. واذا لم يكن الفتى عالما بحقيقة أغراضه ودوافعه ، فمعنى ذلك أنها بعيدة عن دائرة شعوره .. وان كانت طبعا موجودة فى نفسه . فيتحتم فى هذه الحالة أنها كامنة فى اللاشعور

فان صح ذلك ، فمن العبث أن نحاول الوصول الى هذه الدوافع والاغراض عن طريق توجيه الاسئلة الى الفتى .. فهو لا يستطيع أن يعلمنا بما لا يعلمه هو شخصيا . وعلينا نحن أن ننقب عن بغيتنا داخل دائرة لاشعوره

ويبدو أن التفسير التام للسلوك غير الاجتماعى عند هذا الفتى رهن بالتوفيق فى كشف الصراع الكائن داخل اللاشعور . ويجب قبل اتخاذ هذه الخطوة أن نحيط بصورة اجمالية بالعمليات النفسية المتعلقة باللاشعور عموما ..

وأول شىء ينبغى أن نضعه نصب اعيننا ، الا نعتبر اللاشعور فرضا وهميا نستغله فى حل المشكلة النفسية .. بل يجب أن نعتبره شيئا له وجوده الفعلى فى النفس

.. شأنه فى ذلك شأن الشعور تماما . وبالتالى فلهكيانه الخاص ووظائفه الخاصة

ولكن ليس معنى تمايز اللاشعور من الشعور ، أننا نعتبرهما مثل غرفتين فى مسكن واحد .. وكل منهما مستقلة عن الاخرى . وانما المقصود حقا أن العمليات النفسية تنقسم الى نوعين ، فما يعرفه الشخص أو يشعر به فهو خاص بالشعور .. ومالا يعرفه أولا يشعر به فهو خاص باللاشعور

واللاشعور هو المخزن الاساسى لرغباتنا وميولنا .. فما نشعر به من ميل نحو شخص ما لابد أن يصدر عن اللاشعور قبل أن يدخل فى دائرة الشعور فنحس به ونعرفه ..

ومن ملاحظة فرويد لأفعال الطفل الحديث الولادة ، وطريقة سلوكه لتحقيق حاجاته العضوية واستجابته للمؤثرات الخارجية ، استخلص أن العمليات اللاشعورية فطرية ولادية ، يولد بها الانسان ..

وفى هذه المرحلة الاولى من الطفولة ، تكون جميع الاستجابات تقريبا لاشعورية . ويظل الوليد فترة غير قصيرة واستجاباته الشعورية جزء ضئيل جدا من حياته النفسية . أما الغالب عليه فهو التصرفاتاللاشعورية ..

وبالتدريج تزداد لدى الطفل مع النمو القدرة على تمييز احساساته الجسدية . وبذلك يجوز لنا أن نعتقد أن الشعور يخرج أو ينمو من اللاشعور ، ويصدر عنه كما تصدر الفروع عن الجذع ، والزهرة عن الساق فى النبات

ومن وظائف اللاشعور أيضا ، ميل الطفل الى المحاكاة

.. فاذا أضفنا الى ذلك أن حب الطفل لوالديه ينمو معه دون أن يشعر ، أدركنا السبب فى اعجاب الطفل بصفات معينة وتصرفات معينة لدى والديه . وشيئا فشيئا يمتص بعضا من هذه التصرفات ، وهذا هو ما نطلق عليه تعبير أن الطفل تقمص شخصية والديه أو أحدهما . والتقليد أو المحاكاة انما هو القيام بما يقوم به عادة من تقمص شخصياتهم ..

ان الطفلة الصغيرة تعامل دميتها بنفس الطريقة التى ترى امها تعامل بها شقيقها أو أختها . وقد تمثل الطفلة أيضا دور ربة البيت ، وهى تلهو بالآنية وأدوات المطبخ . وفى الحالتين نعتبر أن الفتاة الصغيرة قد تقمصت شخصية أمها ..

والصبى قد يضع على رأسه قبعة ابيه ، ويتمشى فى البيت ممسكا بقطعة خشب صغيرة ان لم تصل يده الى احدى العصى الكبيرة . وفى بعض الاحيان يرفض الصبى أن يأوى الى فراشه ، لا لشىء الا لأن والده لم يذهب الى حجرته بعد . وفى هاتين الحالتين نعتبر أن الصبى قد تقمص شخصية أبيه

واذا راقبنا جميع الاطفال باهتمام ، لرأينا لديهم فى معظم الاحوال وفى معظم الاوقات صورا مختلفة للتقمص

ويجب الا نتوهم أن الاطفال يتقمصون شخصيات الوالدين فحسب ، بل أنهم لا يتقمصون شخصيات الذين يخالطونهم وكفى .. بل يتقمصون أيضا شخصيات الحيوانات ــ من منزلية وغير منزلية ــ والشخصيات التى يشاهدونها فى السينما والتليفزيون .. وحتى الاشياء الجامدة التى لا حياة فيها يتقمصون شخصياتها .. وعلى الخصوص الدمى واللعب !

ولعلك الآن تتساءل : وما الداعى الى الاهتمام فى هذا الوقت بالذات بشرح ميل جميع الاطفال لتقمص الشخصيات ؟

والحقيقة أن فهم هذه الظاهرة الهامة ضرورى للاهتداء الى الاسلوب الذى اتبعه الفتى الذى نبحث حالته فى حل النزاع بينه وبين أمه ..

***

والآن لنرجع الى الوراء قليلا .. الى معلوماتنا عن احوال أسرة الفتى ..

لقد كان مما عرفناه من الأم ومن الفتى ، أن الاب من عادته اذا نجم شقاق أو شحناء بينه وبين الأم فانه يغادر البيت ويظل بعيدا عنه ساعات طويلة ..

وهكذا يكشف لنا عن المفتاح الرئيسى لسلوك الابن مع هذه الام بعينها .. فان الفتى يتقمص شخصية الأب ، ويقوم بمثل ما يقوم به الاب . وبهذا يتخلص من ذلك الموقف بينه وبين نفس تلك السيدة . وكان الاب قد فعل مثل ذلك فى عطلة الاسبوع السابقة مباشره .. وهذا فيه اغراء قوى للابن

ويجب الا نخرج من حسابنا أن هذا السلوك التقمصى لشخصية الاب ، أتاح للفتى أن ينتقم من أمه بما سببه لها من قلق . وقد خبر فى عطلة الاسبوع السابق مقدار ما أصيبت به أمه من النكد لغيبة أبيه ومبيته فى الخارج على اثر مغادرته للبيت غاضبا ..

وربما تذكرت أن الفتى قرأ فى الصحيفة ، وهو يحملها الى أمه فى محل الغسيل اخبار الرجل الذى ضل فى الجبال

وفقـد أثره .. وكيف ان ذلك اتلق خواطر ذويه ونكد عيشـهم

ومما يتسق مع الرغبة الكامنة فى الانتقام من أمه ومن أخته ، انه استولى على نقودهما .. وأما عـدم مساسه بنقود أبيه فيتسق تماما مع فكرة تقمصه لشخصية أبيه

وبهذه السرقة شفى حقدا آخر .. أو أصاب عصفورا اضافيا علاوة على العصافير السابقة التى أصابها بحجر واحد . أعنى أنه سوى حسـابه مع أخته .. فسـلبها النقود التى أخذتها من أمها فى الليلة السابقة بقصد شراء حذاء جديد ، ورآها تضعها فى حصـالتها .. وفقـدانها لهذه النقود يترتب عليه تضييع فرصة اقتناء حذاءجديد لها قبل أن يحصل هو على حذائه

ولعلك لا تمانع فى قبول هذه النتائج التى رتبتها على فرض أن الفتى كان متقمصا شخصية أبيه . ولكن لعلك أيضا لا تدرك لـماذا لم يصارحنى الفتى بذلك ، ولا لـماذا زعم أن غايته هى البر بأمه واحضار هدية من ثمار الكرز لها .. بدلا من الاعتراف برغبته فى ازعاجها بعد أن اعترف فعلا بأنه كان ساخطا عليها ..

وهى اعتراضات وجيهة .. فالتقمص لشخصية الاب اذا فسر الابتعـاد عن البيت مدة طـويلة ، فانه لا يفسر السرقة .. كما أن العملية التى ذكرتهـا لك تبـدو لأول وهلة أشد تعقيدا مما تحتمله طاقة فتى فى مثـل هـذه السن الصغيرة

وقـد يكون الاوفق ألا نبحث عن حل اللغز لدى دافع واحد .. وقدرنا أنه قد تكون لدى الفتى جمـلة دوافع هى التى تعين تصرفاته وتوجهها وتصوغها

وتوضيحا لهذه الفكرة ، نترك مؤقتا بطلنا الفتى ..

ونفترض وجود طفل صغير بالقرب من منضدة فوقها صندوق حلوى . وهذا الطفل لم يذكر له أحد أنه لا يجوز له أن يمد يده ويأخذ الحلوى بغير اذن .. ففى هذه الحالة سيستولى الطفل على ما يشاء من الحلوى ، ويتلذذ بتناولها من غير أن يحدث لديه صراع بين النواهى وبين رغبته واشتهائه لتلك الحلوى .. فالاشتهاء فى هذا الموقف لا تقابله مقاومة

ولنفترض أن طفلا آخر حذر من أكل الحلوى بغير اذن .. ولكنه نسى هذا التحذير عندما رأى الحلوى . وكل ما هنالك انه سيشعر بعدم ارتياح غامض ، يجعله يتردد قليلا .. ثم لا يلبث أن يمد يده فيأخذ الحلوى ويأكلها دون ندم . وفى هذه الحالة أيضا لا يحدث صراع لدى الطفل بالمعنى الصحيح ، لأن رغبته لم تجد الا مقاومة طفيفة

ولكن لنفرض أن طفلا ثالثا يدرك تمام الادراك أن أكل الحلوى بغير اذن ممنوع .. ولم ينس هذا التحذير كما نسيه الطفل السابق ، الا أنه يحب الحلوى حبا جارفا فيمد يده اليها رغم كل شىء ويأكلها . ولكنه يشعر بالندم ووخز الضمير ، لأنه يشعر بالذنب الذى اقترفه .. لأن رغبته أو اشتهاءه تغلبت على عامل الامتناع

ومن الجائز أن هذا الطفل بعينه تتغلب عليه ـ رغم شهوته القوية للحلوى ـ عوامل التربية الشديدة ، فلا يمد يده اليها .. وتنزح هذه الرغبة الى اللاشعور ، لأن الاحساس بعدم لياقتها سيمنع ظهورها فى دائرة الشعور ..

وما حدث بالنسبة لصندوق الحلوى ، يمكن أن يقال

بصفة عامة عن موقف أى شخص بين رغباته القوية وبين المبادىء الاجتماعيةوالدينية والاخلاقية .. فهذهالمبادىء هى التى تبذل طاقة قوية لاقصاء الرغبات غير اللائقة عن مجال الشعور ، وعندئذ نقول ان هذه المبادىء « تكبت » الرغبات فى اللاشعور ..

وهناك قوتان هامتان لهما نشـــاط جوهرى فى عملية الكبت ..

القوة الاولى هى اللاشعور الذى غايته الحصـــول على الاشباع الكامل للرغبة الموجودة فيه ..

والقوة الثانية هى الشعور الذى يصر على الحيـــلولة دون هذا الاشباع ..

ومعنى هذا بعبـــارة أخرى أن هنـــاك قوة كابتة وقوة مكبوتة .. ومن النشـــاط المزدوج لهـــاتين القوتين ينتج الصراع .. وهو صراع ليس فى الامكان التنبؤ بما يسفر عنه ، فقـــد يكون الشىء المكبوت قـــويا بحيث يتغلب على مقاومة القوة الكابتة . وقد تكون القوة الكابتة أقوى من الشىء المكبوت مهما بلغت درجة شدته

والمشكلة الخطيرة ليست فى حالة تغلب احدى القوتين على الاخرى بصورة حاسمة ، وتسيطر عليها .. بـــل المشكلة الحقيقية تحدث عندما لا تتوفر لاى من القوتين الشدة الكافية للسيطرة على القوة الاخرى . ويظـــل الموقف مائعا مضطربا ، لا يسمح بأى نوع من الاستقرار للشخص .. ففى هذه الحالة لابد له ان ينهى الصراع الى نتيجة كى يستقر على حال من القلق الذى يعانيه ..

ونحن جميعا نصادف منغصات فى أشغالنا .. وقـــد يريحنا ان نخلص أنفسنا من آثار هـــذه المنغصـــات ،

فنصب جام سخطنا على أى شخص حيثما اتفق .. الا ان قواعد التهذيب التى ربينا عليها تمنعنا من الاقدام على ذلك ، فنجد انفسنا موزعين بين الاستسلام لحدة الطبع وبين الاخلاد للصمت .. وكلاهما حل واضح معناه سيطرة احدى القوتين على الاخرى . ولكن فى بعض الاحيان لا يحدث هذا او ذاك ، بل يصاب المرء مثلا بنوبة شديدة من السعال أو من الفواق !

فما معنى هذه النوبة ؟ ..

انها مجرد منفس للتخلص من الحالة المائعة ، فالرغبة فى التوبيخ او الصياح لها أدوات تتحقق بها وهى عضلات الكلام والصوت عموما . والسعال يستخدم هذه الادوات والعضلات بعينها ، وبذلك تكون نوبة السعال تنفيسا عما براود هذه العضلات من اثارة قوية للعمل تقابلها قوة مكافئة لها تماما من الكبت الصادر عن حسن التربية او الخوف من العواقب ..

مثل هذا المسلك غير المباشر ، أو الملتوى ، هو الذى يسمى فى التحليل باسم العرض .. أى أنه عرض مثل أعراض الامراض الجسمية المعروفة ، يدل على صراع متكافىء بين شىء مكبوت وقوة كابتة .. كما تدل درجة الحرارة المرتفعة على وجود صراع بين جراثيم المرض وكرات الدم البيضاء

ومثل هذه الاعراض هى التى تدلنا على وجود امراض نفسية طارئة أو آفات نفسية ملازمة .. ولكنها تظهر أيضا لدى الاصحاء من الناس حينما يجدون أنفسهم فى مواقف صراع عادية . وقد درس «فرويد» بعض هذه الاعراض التى تحدث لنا جميعا فى حياتنا اليومية ،والتى

نعبر عنها عادة بأنها هفوات عفوية او فلتات لسان.. وهى فى الواقع اشياء ذات دلالة محددة عميقة فى التحليل النفسى

وبعد أن احطنا بأهمية الصراع ، وبالطرق الثلاث التى ينتهى اليها ، والى أهمية الطريقة الثالثة او الحل الوسط المسماة « بالعرض » ، وكيف انه حيلة نفسية للتوفيق بين قوتين متكافئتين متصارعتين ، نعود الآن الى بطلنا الفتى لنحاول على هذا الضوء حل لغز سلوكه المحير، ان كان ذلك ممكنا ..

ونسأل أنفسنا أولا :

ـ هل نجد عند الفتى نزعتين متعارضتين يلزم للتوفيق بينهما حل وسط بالطريقة التى تسمى بالعرض لانهما متكافئتان فى شدتهما ؟

ولا ريب فى أن الفتى كان ساخطا على أمه قبل أن يقدم على الهرب .. وفى وسعنا أن نفترض الآن أن رغبته فى الهرب ، أو رغبته فى أن يصنع مثلما صنعه أبوه ، هى احد الدافعين الكبيرين ..

وهذا الدافع كان من المحتمل أن يظل فى مجال الشعور ، كما كان من المحتمل أيضا أن تتصدى له عوامل كبت من تربيته . وهذا الاحتمال الاخير هو الذى حدث بالفعل للفتى ، فزجت رغبة الفرار من البيت فى اللاشعور.. وهذا ما حمله على البقاء فى المنزل بعد العودة اليه من محل الغسيل ، ويمكننا تلخيص هذه المقاومة الكابتة فى قاعدة اخلاقية من قبيل « الفتى المهذب لا يهرب من البيت » أو « اذا هربت ستلقى جزاء صارما »

ولو كان هذا المانع الاخلاقى قويا بدرجة كافية، لوقف

الامر عند هذا الحد وبقيت الرغبة فى الهرب او محاكاة الاب مدفونة فى اللاشعور .. ولكن الذى حدث فعــــلا أن الرغبة فى الهرب تحققت بعد ذلك ، فما معنى هذا ؟

معناه أن رغبة الفتى فى الانتقام من أمه أو معاقبتهــا على ايلامها اياه ومضايقاتها قد بلغت أقصاها .. ولــكن يقابل هذه الرغبة الحب الفطرى للام . ولو أن أحدهما تغلب على الآخر بوضوح لشعر الفتى بحقيقة دوافعه ، وأمكنه أن يصارحنى بها .. ولكن احد الدافعين لم يستطع السيطرة على الدافع الآخر

***

ونستطيع أن نتصور ان هذا الصراع المتكافىء بــين الدافعين بلغ الذروة فى الوقت الذى قضاه الفتى متكئـا بمرفقه الى حافة النافذة وهو يأكل الساندوتش . ولم يقف الصراع عند حد الا عندما وقع نظره على نوى الكرز فوق حافة النافذة ، فشعر فى الحال برغبته فى الذهاب الى «تولن» ، لارتباط ثمار الكرز بذلك المكان فى ذهنه ..

اننا نعرف الآن انه كان راغبا فى الانتقام ، وأن تقمصه شخصية أبيه يتيح له أن يقلده فى الطريقة التى يتبعهـا الاب لازعاج الام وتنغيصها . وفى الوقت نفسه لابد من مظهر برىء أو طيب يخفى به هذه الرغبة القبيحـة عن رقابة الشعور الاخلاقية الكابتة ، فغطى رغبة الانتقــام بقناع من الطيبة والبر بالام .. وهو قناع تجيزه الاخلاق وترضى عنه ، وبهذا يكون السلوك المنحرف من الفتى «عرضا» يوفق بين القوتين المتصارعتين .. وهما حب الام والوازع الاخلاقى من جهة ، والرغبة فى معاقبـــــة الام وتنغيصها من جهة اخرى

وليس من المأمون أن نندفع فنقـــرر ان كل حالة

انحراف يمكن ان تفسر على هذا النحو .. ولكن مما لاشك فيه أن تحليل هذه الحالة يضيف الكثير الى معرفتنا بأسرار الانحراف العادية التى تبدو على كثيرين من الغلمان والشبان الصغار ، ويبدو لنا أنها مجهولة السبب غير مفهومة .. ولا سيما ان الشباب المنحرف فى هذه الحالة قد يكون فيما عداها سويا مهذبا

وهذا يعلمنا أيضا الا ننزلق وراء المظاهر السطحية فنسمى الولد لصا ومتشردا .. مكتفين بالوقائع الظاهرية ، وبسؤال الوالدين . بل يجب البحث والتدقيق كى نصل الى البواعث الحقيقية التى يجهلها الشاب نفسه كما يجهلها والداه .. ولا نعتقد ـ بجهالة ـ أن الفتى ملتو خبيث يصر على كتمان ما فى نفسه ، مع أن المسكين ليس أكثر منا علما بما نرهقه بالسؤال عنه ونصر على التصريح به لنا ..

وهذه الحالة تبين الاهمية القصوى للثقافة النفسية ، ولدراية الوالدين والمربين عامة بمبادىء التحليل النفسى ووسائله الاولية .. حتى بالنسبة للاطفال الاصحاء نفسيا وجسديا

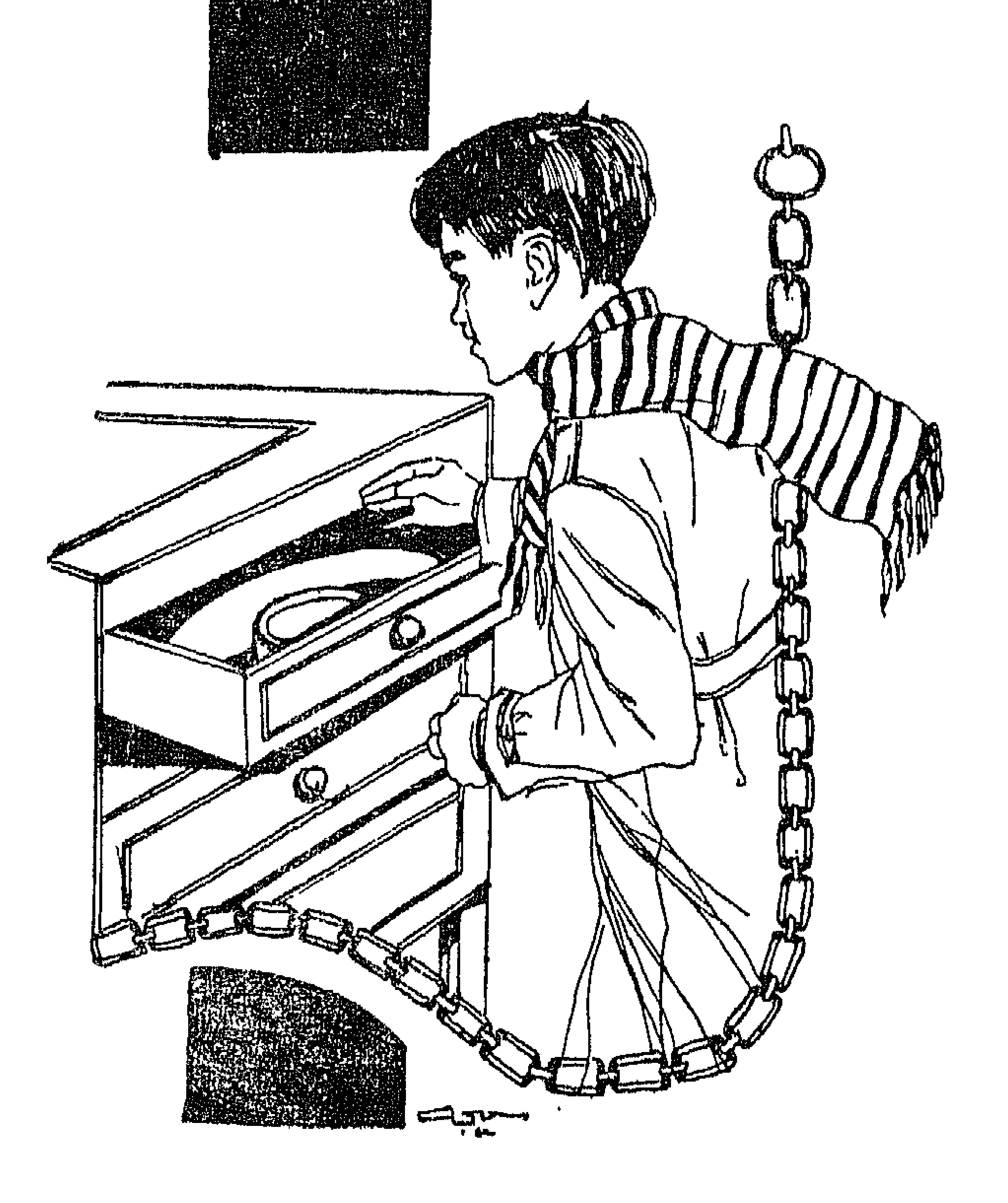
أما من يتعرضون لدراسة المشكلات ، سواء كانوا مربين للمنحرفين أو مشرفين اجتماعيين لغير المنحرفين .. فهؤلاء يجب أن يدرسوا التحليل النفسى دراسة جيدة ، لانه لا شباب بغير أزمات . بل ان معنى فترة الشباب انها فترة يقظة الدوافع القوية فى النفس .. ومن شأن هذه اليقظة ان تصطدم بالمبادىء الاجتماعية والاخلاقية . وليست الازمات سوى «المعارك» التى تدور رحاها بين الرغبات والموانع ..

فلا غنى لكل من يدخل الشبان فى مجال مسئولياتهم عن دراسة التحليل النفسى دراسة دقيقة ، لانهم بدونه لا يصلحون لمعالجة أخص خصائص الشباب ــ مهما بلغوا من الصحة النفسية ــ الا وهى الازمات !



الفصل الثالث

الصدمات النفسية



الصدمة النفسية

ويهمنا الآن أن نعرف هل من المستطاع ان نستخلص قاعدة عامة تنفعنا من دراسة الحالة السابقة ؟ ..

اذا قررنا أن كل سلوك هو نتيجة لقوى نفسية ،يمكن ان تكاون موضوعا للتحليل النفسى ، فلابد فى هذه الحالة أن نعتبر السلوك غير الاجتماعى نتيجة أيضـــــا لنفس هذه القوى ، شأنه فى ذلك شأن السلوك الاجتماعى ..

وبعبارة أخرى يمكننا أن نقـــــول أن السلوك غــــير الاجتماعى دليل على ان العمليات النفسية من شعوربة ولا شعورية ليست فى حالة وفاق ..

وهذه القاعدة تساعدنا على تحديد معنى الانحراف ـ من ناحية التحليل النفسىعلىالاقل ـ كما تهدينا الىحل لهذه المشكلة ..

فسرقة النقود التى اقدم عليها الفتى فىالحالةالسابقة، وهربه من البيت ، انما هما مظهران للانحراف ناتجان عن قوى نفسية لم تستطع الحصول علىاشباعبصورةمقبولة اجتماعيا .. فاضطر الفتى الى أن يسلك سلوكا لا يقبله المجتمع .. ولذا وصفنا هذا السلوك بأنه غير اجتماعى أو سلوك منحرف

والتشرد والسرقة وما اليهما ، انمــــــا هى أعراض للانحراف .. شأنها فى ذلك شأن ارتفاع درجة الحرارة

والآلام والاورام التى تعتبر اعراضا للامراض الدفينة . وبطبيعة الحال اذا اكتفى الطبيب بعلاج الاعراض الظاهرية كان مقصرا ، لان فاعلية علاجه لا تمتد طبعا الى المرض نفسه ..

وهكذا أيضا يمكن أن يكون موقفنا من أعادة تربية الطفل المنحرف ، فمن الواجب عند قيامنا باعادة التربية أن نعنى بازالة أسباب الانحراف أكثر من اهتمامنا بأعراض الانحراف ..

ورب قائل يقول : ان هذا أمر بديهى .. وانه لكذلك فعلا ، الا أنه للاسف كثيرا ما يغيب عن الاذهان شأن معظم البديهيات . وقد جربت مرارا كثيرة ، عواقب الخلط أو اللبس بين أعراض الانحراف والمشكلة الجوهرية التى تكمن وراء مظاهر الانحراف ..

ومن أكثر الناس خلطا فى هذا الامر الوالدان ، لانهما بوسائل الاصلاح والتأديب والعقاب ينصرفان غالبا الى كبت السلوك غير الاجتماعى الذى هو مظهر الانحراف أو العرض .. ويخيل اليهما أن اختفاء هذا السلوك المستهجن معناه ان المشكلة قد انتهت

والحقيقة ان اختفاء العرض ليس دليلا على زوال المرض ، فقد يتخذ المرض لنفسه اعراضا جديدة مختلفة عن الاولى . وعندما يحال بين احدى العمليات النفسية وبين الظهور او التحقق او الاشباع ، تظل هذه الطاقة النفسية كامنة تتربص الفرص للتنفيس عن نفسها من سبيل لا تعترضه الحوائل .. وبالتالى يظهر عرض جديد للانحراف نظنه انحرافا جديدا ، وهو فى الواقع صورة جديدة أو لون جديد أو قناع جديد للانحراف القديم ..

واذا فهمنا هذه المسألة جيدا استطعنا انتصحح وهما شائعا يعشش فى أذهاننا .. فعندما كنت اسأل الوالدين عن تفسيرهم لسلوك ابنائهم سلوكا غير اجتماعى ، كثيرا ما كنت اسمعهم يعزون هذا السلوك الى عشراء السوء والتسكع فى الطرقات أوقاتا طويلة ، واللعب فى الحوارى والازقة .. واسمع كلاما كثيرا عن المعاشرات الرديئة

وهذا الكلام قد يكون صحيحا ـ فى حد ذاته ـ ولكنه لا يكفى لتفسير ما نسأل عنه ، لان ألوفا مؤلفة من أطفال وشبان آخرين نشأوا فى مثل هذه الظروف المستهجنة بالذات .. ومع ذلك لم يظهر على سلوكهم الانحراف ، فلابد أن يكون فى الطفل المنحرف نفسه شىء كامن تقوم الظروف غير المناسبة باظهاره على شكل انحراف .. فاذا كان هذا الشىء الكامن المجهول هو ما نسميه بالاستعداد للانحراف ، فهناك اذن عنصر نفسى فى الطفل لولا وجوده لما كان للبيئة السيئة اى تأثير عليه ..

ونحن نرجح ان هذا الاستعداد للانحراف وراثى، ولكن التحليل النفسى بين بوضوح ان الوراثة لا تصلح لتفسير كل شىء ، وان الاحداث المبكرة فى الطفولة الاولى لها أهمية كبرى فى تحديد شكل واتجاه النمو الذى يعقب ذلك..

والاستعداد للانحراف لايوجد مكتملا عند الولادة ، بل تحدد قوته ومداه التجارب الاولى التى تصبها البيئة على الوليد .. ولذا ليس من الحتم ان كل طفل يولد ـ ولديه استعداد للانحراف ـ مقضى عليه ان يغدو فتى منحرفا ..

وبعد مرحلة الطفولة الاولى التى لها الاهمية الكبرى، يأتى تأثير أقل أهمية لعشراء السوء ورفاق الازقة وما الى ذلك .. فهذه الامور لا يمكن اعتبارها أسبابا أصلية

للانحراف ، بل الاصح انها تثير الانحراف اما بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة

والمنحرف يعرض نفسه لانواع من العقوبة ؛ منها النبذ والاستهجان .. ومع ذلك يصر على سلوكه المنحرف ، لانه كما فهمنا مدفوع اليه .. ولكن يهمنا الآن أن نركز انتباهنا على مناهضة السلوك المنحرف لمطالب المجتمع ، ومناقضته لعالم الواقع

وهذه المناقضة لعالم الواقع لا تبدو أمرا عجيبا في نظر العارف بالتحليل النفسي ، لانه يدرك ان المصاب بمرض نفسي عموما يصنع عالما خاصا به يعيش فيه .. فلاغرابة أن يكون للمنحرف أيضا واقعه الخاص الى حد ما .. وهذا يفسر اشياء كثيرة تتعلق بالانحراف ، ويخضعه لمناهج التحليل النفسي ..

وفي وسعنا أن نسمى السلوك السيء السافر «انحرافا سافرا» . اما السلوك السيء الذى لم يظهر أثره بعد فنسميه « انحرافا كامنا » ..

والانحراف السافر هو السلوك المناهض للمجتمع .. فالغلام الذى «يزوغ» من المدرسة ، او الذى «يلطش» أدوات زملائه يعتبر منحرفا انحرافا سافرا أو ظاهريا .. اما الغلام الذى توجد لديه هذه الميول فى حالة نوم او خمود ، فهو منحرف انحرافا كامنا .. وتحول الانحراف الكامن الى انحراف سافر مسألة ظروف ليس الا . وهنا تبدو خطورة رفقاء السوء ..

واذا كان يهمنا ان نعرف الاسباب الحقيقية للانحراف، فينبغي الا نكتفي بالبحث عن المثيرات المباشرة للانحراف ، وهي تلك المثيرات التى حولت الانحراف الكامن الى

انحراف سافر .. بل الواجب ان نفتش عن العوامل التى اوجدت الانحراف الكامن أساسا ..

والمهمة الاساسية لاعادة تربية المنحرف هى اضعاف الميل الكامن نحو الانحراف ، وليست القضاء على المظاهر السافرة لذلك الانحراف .. فهى أشبه بانتزاع الحشائش الضارة من جذورها ، لا مجرد اجتثاثها من فوق سطح الارض ، لانها فى هذه الحالة ستعود الى الازدهار ..

ان العلاقة بين العرض السافر والميل الكامن للانحراف أشبه بالعلاقة بين ارتفاع الحرارة او الصداع وجرثومة المرض .. وفهم هذه المسألة ضرورى للقضاء على كثير جدا من الاوهام المسيطرة على الناس فى تربية الاطفال والشبان .. ويفسر لنا فى الوقت نفسه علة فشل العلاج فى كثير من الاحيان .. كما يفشل علاج الصداع الناجم عن تعب فى الكبد بتعاطى اقراص من الاسبرين مثلا ..

***

والآن سنستعرض حالات توضيحية من نوع آخر ..

والفتى فى هذه المرة عمره ستة عشر عاما .. ماتت أمه فذهب ليعيش مع شقيقته وزوجها .. فأهملت اخته شأنه ، وصار يقضى معظم وقته فى الازقة والطـــرقات حتى صار فتى منحرفا ..

ومصدر الشكوى من انحرافه يتمثل فى حب التشرد « الصياعة » وعدم الرغبة فى الالتحاق بعمل .. فذهبت به أخته الى العيادة النفسية الحكومية ، وجاءت نتيجة الفحص أنه من الضرورى ارساله الى اصلاحية ..

ولم يرد فى التقرير الذى كتبه الاحصائى بالعيادة ، اى

دليل على الاشتباه فى اصابة الفتى بمرض عقلى .. أما تقرير المدرسة التى كان بها ، فيدل على تخلفه عن اقرانه فى جميع العلوم .. وانه دون المستوى العادى كثيرا لانه لم يلتحق بالمدرسة الا فى سن متأخرة . ومع ذلك فان منسوب ذكائه بناء على الاختبارات المألوفة حول العادى ..

ونظرت الى خانة «المواظبة» فوجدت درجته فيها عالية .. اى انه طالب مواظب . ومعنى هذا ان تشرده طرأ عليه بعد انتهائه من المدرسة ..

وأعدت اختبار ذكائه .. فوجدته عاديا فى كل ناحية الا فى احد الاختبارات اللغوية فقد كان ضعيفا ، لان المفروض فى هذا الاختبار ان يأتى الطالب بمحصول لغوى مقداره «٦٥» كلمة على الاقل مما يرد على ذهنه «عفوا» ولكن فتانا لم يأت الا بـ «١٦» كلمة وبعد تردد كثير .. مما يدل على وجود «مقاومة» فى هذه الناحية

واذا اضفنا الى هذا انه رغم وسامته ونموه الحسن ، خجول وبطىء الحركات ومتحفظ ، استطعنا ان نقول انه شديد السلبية ، وانه دمث ، وان انحرافه ليس من النوع الذى يخشى منه على الناس ، وأنه من السهل اصلاحه ..

والآن سنذكر بعض العبارات التى وردت على لسانه أثناء مقابلات تمت بيننا على مدى ثلاثة شهور ، لما فيها من مغزى خاص :

— أبى كان عاملا ..

— مات أبى فى المستشفى ..

وحدد تاريخ وفاة أبيه بالضبط وبلا تردد ، وأردف ذلك بقوله :

ـ ورثيت لحالة امى كثيرا .. لانه تركها وحيدة ..

ـ لى اخت تكبرنى بخمس عشرة سنة ..

ـ كان لى اربعة اخوة بين ذكور واناث ماتوا جميعا ولم أرهم ..

ـ كنا نسكن غرفتين ..

ـ كنت أنام فى السرير بين أبى وأمى .. كلنا معا ..

ـ أختى كانت تنام على أريكة ..

ـ كان عمرى ١٢ سنة عندما تزوجت شقيقتى ... وظللت انام مع أمى وأبى

ـ لما مات أبى حللت محله وصرت أرعى شئون امى ..

ـ كنت أقوم بخدمة البيت من تنظيف واعداد طعام قبل ان تعود أمى من المصنع

ـ وماتت أمى بعد ذلك ..

وكان هادئا تمام الهدوء ، وهو يذكر وفاة امه لاول مرة .. كأنما هذا الامر ليس له تأثير عنده . ولم يذكر التاريخ بالضبط كما ذكر تاريخ وفاة أبيه ، ولا أين ماتت، ولا كيف ماتت

ولكنه ذكر كل هذه التفاصيل فيما بعد .. وذكرها وهو ينتحب فجأة .. مع انه قبل ذلك مباشرة لم يكن يبدو عليه أى انفعال ..

ذكر أنها ماتت « ميتة بشعة » .. « فرمتها آلة المصنع فرما » .. وجاءه بالبيت من استدعاه « لان أمه مغمى عليها فى المصنع » .. فذهب الى هناك مع اخته

فأخبرتهما الادارة بما حدث ، فسقط فاقــد الوعى . وبعدها ذهب مع أخته الى البيت ، حيث ظلت اختــه ساهرة عليه طول الليل لان حالته كانت سيئة جدا من فرط الرعب .. ولذا لم تسمح له بتشييع الجنازة . وحاول ان يبكى فاستعصت عليه الدموع ، فجعل يتشاغل بلعبة له كانت امــه تتعجب دائما من براعتــه فيما يفعله بها ..

ـ ثم انتقلت الى بيت أختى ، وبعنا أثاث منزل أمنا، وقاسمت أختى ثمنه . وأبت أختى أن تتقاضى منى مقابلا لاقامتى عندها ، وسأجزيها على هذا الصنيع يوما ما ، وعملت « صبى ميكانيكى » شهـرين ولـكن لم يعجبنى العمل فتركته . ولم تفارقنى صورة أمى لحظة واحدة ، ولا فكرة ميتتها البشعة .. وعملت فى فندق . ولـكن كان من عملى ذبح الحيوانات فنفرت من هذه المهنـــة وتركتها الى النجارة ، ولكنى لم أحبها أيضا ولم يرض معلمى عن كسلى فطردنى . والتحقت بعمل آخر ففشلت فيه أيضا ولا أدرى لهذا سببا ، مع أن هـــذا التعطل يؤلمنى .. وصرت أقضى وقتى فى الحديقة العامة أرقب تدريبـات الجند بلذة وشغف ، ولا سيما موسيقـــاهم العسكرية .. وكان زوج اختى ـ ولى أمرى ـ لا يكف عن مطالبتى بالالتحاق بعمل وتعلم مهنة ، ولذا لم أكن أعود الى البيت فى المساء واقضى الليل تحت قنطرة .. فقبض على مرارا بتهمة التشرد ، وساقنى زوج أختى الى اصلاحية الاحداث ..

ولم يتخذ له اصدقاء فى الاصلاحية .. بل انه لم يكون معى انا أيضا صلة وثيقة رغم طول المدة وكثرة اللقاء ، وان كان قد صار اكثر تبسطا فى الحديث ومع أن ذكاءه كان أعلى من ذكاء اقرانه بالاصلاحية ، الا انه لم يحاول

الوصول الى مكانة الزعيم بينهم .. وكان بارعا فى تسوية الخلافات بطريقة ودية

وتدريجا زال انقباضه ، واصبح أقل نسيانا ، وزاد اهتمامه بالعمل ولا سيما فى الفلاحة .. الا انه كان بطيئا جدا فى حركاته .. وبعد مدة التحق بالعمل فى مدرسة كبيرة ، ولم تظهر عليه بعدها اعراض الانحراف ..

والآن يجمل بنا أن نستفيد من هذه الحالة لتفهم ما يسمى « الصدمة النفسية » .. وهى احدى العناصر الهامة فى العصاب أو المرض النفسى :

بعض الناس عاجزون عن «هضم» التجارب المؤلمة التى تحدث لهم ، اذا حدثت لهم بصورة مفاجئة وعنيفة .. بحيث يكون التكيف معها شيئا فوق طاقتهم ..

وعندما يكون للتجربة الانفعالية هذا التأثير الشديد الوطأة نسميها « صدمة نفسية » . وهذه الصدمة قد تتمخض احيانا – فى ظروف معينة – عن عصاب أو مرض نفسى شامل ..

ومن المفيد أن نورد هنا تعريف فرويد للصدمة النفسية :

« ان عصاب الصدمة عبارة عن تثبيت وقع على الحادث الذى نجمت عنه الصدمة ، بحيث يبدو المصاب بالصدمة النفسية وكأنه لم يصل بعد الى التصرف المناسب فى الموقف العسير الذى الم به .. وكأنه لم يزل مطالبا بالوصول الى هذا التصرف المناسب »

واذا رجعنا الى فتانا ، لوجدنا أن التشرد ورفض العمل علامتان أو مظهران للانحراف .. وهذان المظهران كانا هما سبب ارساله الى الاصلاحية ..

ونلاحظ أن هذه الاعراض لم تظهر عليه الا بعـد وفاة الام بهذه الطريقة الشنيعة .. وبعد اقامته مع أختـه ازدادت حالته تفاقما ، بحيث أدى الامر الى ارســاله للاصلاحية ..

واذا كان ما قررناه صـحيحا عن الانحـراف الكامن والانحراف السافر ، فلابد ان الانحــراف الكامن كان موجودا لدى الفتى قبل ان يذهب للمعيشةمعشقيقته.. أو بعبارة أخرى قبل أن يغـدو سـلوكه غير اجتمـاعى بصورة سافرة ..

واذا كان ذلك صحيحا ، فيجب أن ننقب عن أساس هذا الانحراف الكامن فى فطرة الفتى ، وفى مرحلة طفولته ثم فيما مر به بعد ذلك من أنواع التجارب ..

وبحثت فلم أستطع أن أعثر على استعداد للشذوذ فى فطرته .. واما تجارب طفولته الاولى فلا نستطيـــع الوصول اليها الا بتحليل نفسى دقيق طويل .. وهـذا ايضا لم يتيسر

ولكن هذا لا يمنعنا من الاســتفادة من أمور اخـرى معلومة لنا بدون عناء : ومنها أنه بوغت بفاجعـة أمه ، وأن المفاجأة كانت مؤلمة حتى لقد اغمى عليـه . وقضى الليلة فى فزع ، فسهرت أخته عليه طول الليل ..وحالت بنه وبين شهود الجنازة لفظاعة وقع الصدمة عليه .. وانصرف الى احدى لعبه فى الوقت الذى كانت فيه أمه الغالية توارى التراب ..

وهذا كله ليس عاديا ــ على الاطلاق ــ ان يصدر عن فتى كبير عمره يومئذ ١٤ سنة ، مع أنه لم يشاهد أمه فى تلك الحالة .. بل سمع فقط بما حدث من أفواه رجال

المصنع ونسائه .. وهو نفسه قد عبر عن هذه الصدمة بقوله :

ـ لم أستطع أن أنقطع عن التفكير فى أمى لحظةواحدة، أو عن تخيل منظرها الفظيع بعد هذا الذى حدث لها ..

ثم ماذا حدث ؟ ..

حدث انه « كبت » كل ماله صلة بهـــذا الحـــادث المؤلم ..

وربما سألت :

ـ وما الدليل على أنه «كبت » الحادث ؟

ودليلنا انه استعاده بصورة تدريجية .. أى أن هناك مقاومة ضد استعادته ، لان تلك الاستعادة تسبب له الما ممضا . ولولا ذلك الكبت ، وتلك المقاومة ، لكانت هذه الاستعادة أسهل شىء واهم شىء ينكره .. كمـــا حدث بالنسبة لذكره ظروف وتاريخ وفاة ابيه بالضبط

ومن هذا الكبت ، وهذه المقاومة للتذكر ، نتجت كل الالتواءات فى سلوكه ، وتفاقمت الانحرافات يوما بعـــد يوم ..

ولكن يجب ألا نغلو فى تجسيم أهمية التجربة المسببة للصدمة .. فنفس التجربة التى تحدث الصدمة عندفتى معين فيصير عصابيا « مصابا بمرض نفسى » لا يكون لها اثر تقريبا عند فتى آخر ..

ومهما يكن من شىء فالتشرد عند فتانا حل محل المرض النفسى « العصاب » ولعله بهذا التشرد كان ينجو بنفسه من مرض الكآبة « الملانخوليا » الذى أصاب هاملت .. ولا ندرى هل يفيد التحليل فى علاج مثل هذه الحالة ام لا .. ولكنه كان حريا ــ لو تم ــ أن يطلعنا على تجـــارب

طفولته الاولى ، وما فيها من عوامل ادتالىالانحراف..

وليس أمامنا ــ مادام التحليل لم يتم ــ الا ان نلجأ الى الفروض ..

ونرجح أن موت الام بهذه الصورة ما كان ليحدث هذا الاثر ، لو لم يكن الفتى متعلقا جدا بأمه ومرتبطا بها تمام الارتباط

ومن أقواله نعرف انه كان مرتبطا بوالديه ينام بينهما فى فراشهما .. وهو واخته بقية « نصف دستة » من الاطفال ، وبينه وبين شقيقته الكبرى ١٥ سنة .. وبعد ان اخلت اخته الاريكة التى كانت تنام عليها وذهبت الى بيت زوجها لم يحل محلها على الاريكة بل ظل ينام بين أبويه ، مع أن عمره يومئذ ١٢ سنة . وبعد وفاة ابيهظل ينام مع أمه ، ويعنى بها بدلا من أبيه ..

كل هذا يوحى بأن الفتى كان متقمصا شخصية أبيه بصورة غير عادية .. ولذا كانت صلته بأمه غير عادية .. كأنه أبوه ، وليس معنى هذا طبعا أنها علاقة شائنة .. بل المراد أنها علاقة أعمق من علاقة الامومة العادية .. ولذا كان وقع « اختطافها » عليه يعنى أكثر من مجرد فقدان الام ..

ونحن لا نمارى فى أن اتجاه الطفل بمحبته نحو افراد أسرته ــ ولا سيما الوالدين ــ أمر ضرورى جدا لنموه الانفعالى السليم .. ولكن من الطبيعى أيضا أن تقل هذه العواطف العنيفة قرب المراهقة ، ويقل الارتباط بالوالدين وأفراد الاسرة قبيل هذه المرحلة ، لان مرحلة المراهقة هى أوان انتقال موضوع الحب من داخل الاسرة الى خارج محيطها .. ومن الام والاب والاخوة الى أفراد

من الجنس الآخر غرباء عن هذا المحيط القـــريب من الذات ..

ولذلك نرى انه فى حالة استمرار التعلق بأفرادالاسرة فى النمو ، وعدم توقف هذا النمو قبل المراهقة ، يتعرض الفتى المراهق لمـــا يسمى « تثبيتا » على موضـــوعات حبه . ولا يستطيع ان يتحول بحبه من امه أو أبيـــه الى شخص غريب عن الاسرة .. المفروض انه الزوجة..

وهذا التثبيت هو الاصل الكامن فى بعض انواع العصاب أو الانحراف ، وتكفى الظروف أو المناسبات لجعله عصابا ظاهرا او انحرافا سافرا ..

وفى حالة هذا الفتى كانت « الصدمة النفسية » بموت الام فجأة هى هذه « المناسبة » السيئة ..



نموذج آخر للصدمة

والحالة التي أمامنا هذه المرة ، حالة فتاة منحرفة فى الخامسة عشرة من عمرها .. بعثتها المدرسة بتقرير جاء فيه ان الفتاة تعانى من سوء المعاملة فى البيت .. والبيت ليس لأبويها ، فهى يتيمة يعولها خالها وزوجته . وهذا الخال من صغار التجار فى أقاصى المدينة

وقد بدأت بمقابلة الكافلة ــ وهى زوجة الخال ــ فلم تترك هذه السيدة فى نفسى فكرة قاتمة عنها .. ففكرت أن الحالة ربما لم تكن ناجمة عن سوء معاملة بالمعنى المألوف . ولذا فمن الواجب أن أعيد النظر فى الموضوع من أساسه قبل أن أمضى فى العلاج

وشكت لى زوجة الخال من الفتاة ، فقالت انها فتاة صحيحة البدن ، موفورة العافية ، ومع ذلك لاتقوم بنصيب من أعمال البيت .. بل وليتها تسكت عن اثارة الشغب والازعاج والفوضى . وهى على الجملة لا تبدى عرفانا لقدر مايبذله لها خالها وزوجته

وعلمت منها أيضا ان الفتاة فقدت والديها كليهما .. ولو لم يبد خالها استعدادا لايوائها وكفالتها ، لوجدت نفسها تحت رحمة الغرباء .. ثم ان خالها يقوم بهذا العمل لوجه الله ، لان الفتاة فقيرة لم يترك لها أبواها شيئا على الاطلاق .. فلا مصدر لمعيشتها ونفقاتها الا عطف

الخال . وكان الخال قد وعد أمها ــ شقيقته ــ وهى على فراش الموت أن يكفل البنت اليتيمة .. وكان عند وعده

واكدت لى السيدة أيضا أنها وزوجها يعاملان الفتاة ، وكأنها ابنتهما فعلا .. الا أن الفتاة لا تبدى تعاونا . . وعند عودتها من المدرسة تبقى فى الشارع أمام البيت ، وترفض أن تقوم بأى عمل من أعمال البيت لمساعدة زوجة خالها . واذا قامت بعمل صغير ، لاتقوم به عن طيب خاطر .. بل مرغمة تحت ضغط الزجر والانتهـــار . وغالبا ما تتراخى فى العمل الذى تجبر عليه ، فلا تفرغ منه ولا تتمه .. الى أن تضطر زوجة خالها لأخذه من بين يديها كى تتمه هى .. وهى ــ على الجملة ــ شديدة العنـاد كثيرة المكر ، لايوثق بها ولا يعتمد عليها .. يغلب عليهـا الشرود والسهو ، حتى أن زوجة خالها لاتطمئن على طفلها البالغ من العمر ثلاث سنوات وهو معها ، خشيـــة أن ينزل به مكروه وهى ساهية عنه

ومما أكدته زوجة الخال أيضا ، أن هذه الفتاة لم تذرف دمعة واحدة أو تظهر امارة من أمارات الحزن والجـزع حين مات والداها ، مما يدل على مبلغ تبلد احساسها .. فلم تند من فمها صرخة واحدة فى جنازتهمـا . ولم تزل الى الآن لا تبدى أى تأثر اذا جرى ذكر والديها بمسمـع منها

وبدأت أسأل زوجة الخال عن عائلة الفتاة .. أعنى عن والديها . فعلمت منها أن والد الفتاة كانت حالته المالية ميسورة نوعا . وكان يقيم فى احدى القرى ، الا أنه كان يدمن الخمر ، ومريضا بالسل . وكانت الفتاة فى حيـاة أبويها موضع رعاية وحدب وحب لاحدود لها ..

ولما مات الوالد صفت الام متروكات زوجها .. وكانت

امرأة قليلة الخبرة ، فأدركت بعد التصفية والبيع مباشرة انها غبنت ، وأنها اخطأت فى بيع هذه الممتلكات .. فحاولت أن ترجع فى البيع ، ولكن دون جدوى

وأدت هذه الصفقة الخاسرة الى تدهور حالتها المالية .. وسرعان مالحقت بزوجها بعد ستة أشهر عاشتها فى فقر وضنك

وفى نهاية الحديث ، عادت زوجة الخال تؤكد أنه ليس فى وسع أحد أن يرميها بالتقصير فى حق الفتاة أو اساءة معاملتها .. مع أن الفتاة لا تطاق وتتحـــدى قدرة أى انسان على الاحتمال

واعترفت انها كانت تضطر عندما تفرغ جعبتها من اللوم والزجر بلا فائدة ، أن تعاقب الفتاة عقابا بدنيا .. بيد أنها أكدت عدم مغالاتها فى ذلك العقاب ، وعدم الوصول به الى حد القســـوة فى أى وقت من الاوقات ، وعززت تأكيداتها لصدق هذه الاقوال باليمين . وأعربت عن ارتياح ضميرها ارتياحا تاما من جهة بنت أخت زوجها

وبعد أن انتهيت من زوجة الخال ، دعوت الفتاة لمقابلتى .. فبدأت تتحدث عن المدرسة ، وأعربت عن حبها لها ، وتعلقها بمعلمتها .. وان كانت صلاتها بزميلاتها لا تصل الى حد تكوين صداقات وثيقة

وعندما انتقل الحديث الى البيت ، أخذت تتكلم عنه بتحفظ شديد .. مع أنها تدرى تماما أن تقرير المدرسة يتضمن شكوى ضد معاملة زوجة خالها لها . . وان هذا الاستجواب الذى أجرى ، المفروض أنه لصالحها ولانصافها من زوجة الخال القاسية ..

بل إنها لم تشر ، من قريب أو بعيد ، الى مااعترفت به

زوجة خالها من توقيع عقوبات بدنية عليها أحيانا .. ولكنها ذكرت بوضوح أن زوجة خالها تكثر من زجرها وتقريعها

وانتهزت هذه الفرصة ، وسألتها عن السبب الذى يدعو زوجة خالها الى الاكثار من لومها وزجرها .. فسكتت برهة ثم قالت :

ــ كان التفكير فى أمى وأبى يستغرق حواسى .. فكنت مشغولة دائما بالتفكير فى حالنا عندما كنت فى بيتنا ، وكيف كنا سعداء ..

وما أن نطقت بهذه العبارة حتى اختفت من وجهها امارات التردد والحرج ، وظهرت عليها بوضوح امارات الالم .. بل والتفجع ، فعلمت ان هذا الكلام لمس وترا حساسا جدا من نفسها ، وان من المفيد السير فى هذا الاتجاه بعد أن عرفت أن الفتاة كانت مستغرقة طول الوقت فى التحسر على الحياة مع ابويها ، وأن استرجاع تلك الصور السعيدة هو الملجأ الذى كانت تأوى اليه من منغصات حاضرها المؤلم . ولم تلبث أن صرحت لى أيضا بأن هناك حلما مخيفا يراودها باستمرار .. وفى هذا الحلم ترى والديها على فراش الموت

ووصفت لى وصفا دقيقا كيف كانت وحدها بالبيت . وكان ابوها فى المرحلة الاخيرة من مراحل مرض الدرن ، وطلب منها أن تأتيه بكوب ماء .. وجاءته بالكوب فتجرعه، ثم سعل وشرق ، ولم يلبث أن سقط على سريره ميتا ..

وصاحت الفتاة مستغيثة ، ولكن أحدا لم يسمع استغاثتها ولم يخف لنجدتها .. ومع ذلك لم تجسر على الهرب من البيت حتى لا تتركه وحيدا . واضطرت للبقاء

تحدق فيه مرتاعة ، وهو ميت ، الى أن حضرت أمها من الخارج ..

هذه حادثة وفاة أبيها .. وبعد نصف عام تقريبا ، حل عيد الفصح .. فبعثت بها أمها الى الكنيسة . وبعد أن قبلت الفتاة أمها وهمت بالانصراف ، والام واقفة بجوار النافذة وفى يدها خرقة ، سمعت الفتاة صوت شيء يبدو أنه فى داخل « الخرقة » .. فعادت أدراجها مسرعة ، وتناولت من يد أمها « الخرقة » لتعرف ما الذى بداخلها .. ففوجئت داخل « الخرقة » بقطعة من الحبل مكورة. وكانت الام قد أقدمت قبل ذلك اليوم على الانتحار شنقا بمنديل كبير . وانتزعت الفتاة الحبل من يد أمها وألقته بعيدا ، وقد أدركت ماتفكر فيه ..

وانصرفت الفتاة الى الكنيسة .. وعند عودتها منها وجدت أمها مدلاة من قضبان النافذة والحبل يحيط بعنقها !

ولاحظت ان الفتاة عندما بدات تستعيد أمامى هذا المنظر ، اتخذت وضعا أدهشنى !.. اذ جلست متشابكة الاصابع وقد مالت براسها الى وضع جانبى واستسلمت للتفكير ، فأيقنت أنها انتزعت نفسها تماما من العالم الخارجى ، لتعيش فى ذكرياتها .. ولذا يصعب عليها أن تعود الى العالم الواقع لتواصل عملا بدأته ، أو لتفكر فى ضرورة القيام بأى عمل

وعندئذ سألتها :

ــ هل تجلسين فى بيت خالك مثل هذه الجلسة باستمرار ؟

ـ اننى فى العادة لا أنظر فى وجه زوجـة خالى عندما تكلمنى ، واشيح بوجهى بعيدا .. حتى اذا دعت الضرورة أن أوجه اليها الكلام . وبذلك أتجنب طرد الافكار التي تستولى على ذهنى طول الوقت ، لانى أفضل أن أستغرق فى هذه الافكار

ـ وهل تتنبهين بسهولة عندما تناديك ؟

ـ اذا نادتنى بصوت مرتفع .. وفى هذه الحالة انتفض منزعجة ! .. ويضايقنى أننى لا أستطيع العودة بسهولة الى ماكنت مستغرقة فيه من التفكير ..

وعلمت من الفتاة أيضا أن زوجة خالها كثيرا ما تغادر البيت بعد الظهر ، وتترك لها مهمة تنظيفه وحدها . . فتنتهز الفتاة فرصة هذه العزلة ، وتمضى الى حجـرة قليلة الضوء وتستلقي فوق أريكة ،وترخى العنان لخيالاتها وأحلام يقظتها . وعندما تستولى عليها هذه الحالة من الشرود العميق ، لايسعها أن تسمع شيئا أو تعى مايجرى حولها .. حتى أن زوجة خالها عندما عادت من الخارج ذات مرة ظلت تطرق الباب بكل قوتها نصف ساعة دون أن تسمعها الفتاة . ولما سمعتها أخيرا ، دخلت السيدة وهي تكاد تنشق من الفيظ .. وجعلت ترمى الفتاة بالمكر والخبث ، ورفضت أن تصدق أنها لم تسمعها !

وبطبيعة الحال لايمكن أن تطمئن الفتـاة الى زوجة خالها ، ولا أن تفضى اليها بموضوعات أحلام يقظتها .. ولذا تعتذر للسيدة كلما شردت بأعذار وهمية غير معقولة، تزيد من اقتناع زوجة الخال بأن ربيبتها خبيثة ماكـرة ناكرة للجميل كذابة عنيدة !

وحرصت الفتاة على أن توضح لى أن الافكار التى تنهال

عليها فى أحلام يقظتها ، ولا تريد أن تتخلص منها ، ليست على الدوام أفكارا محزنة أو مخيفة .. بل فى كثير من الاحيان يكون لها طابع سار ، وذلك عندما تحملها الذكريات الى أيام طفولتها السعيدة ..

وهذه الذكريات « الطفلية » واضحة كل الوضوح .. وممكن أن تسيطر على ذهنها فى أى وقت ، أثناء قيامها بعمل ، أو أثناء ملاعبتها للطفل ابن خالها .. بل وربما أثناء سيرها فى الشارع . وأكثر مايكون ذلك وهى سائرة فى الطريق صباحا ، خصوصا اذا كانت أثناء الليل قد رأت حلما من الاحلام المتعلقة بماضيها فى بيت أبويها .. وهو أمر كثير الحدوث فى معظم الليالى

وبسؤال الفتاة ، تأكدت ان هذه الحالة من الشرود وأحلام اليقظة لا تستولى ـ بذكرياتها البعيدة القوية ـ عليها أثناء وجودها فى المدرسة ، وأنها تكره أعمال البيت .. بل وتكره ملاعبة ابن خالها الطفل ، وتشعر من ملاعبته بضيق شديد

ـ ولكن هل تكرهين الطفل ؟ أو الاطفال عموما ؟

ـ لا .. اننى اكره ملاعبة الطفل لان زوجة خالى تزجرنى عند أول بادرة تذمر من ابنها ..

ومهما حدث للفتاة من متاعب ، فانها كانت لا تشكو حالها الى زوجة خالها .. لان نتيجة الشكوى دائما أن تغضب زوجة الخال ، وتصب عليها الشتائم والنعوت القبيحة مثل الغباء والعناد والحقارة . ولما أعدت عليها السؤال ، أكدت لى ذلك بكل ثبات .. وأحسست أن رواية الفتاة أجدر بالتصديق من رواية زوجة خالها ، لان طريقة السرد ولهجة ابنت تبعثان على الاقتناع

وقررت الا أبت فى الامر قبل أن أحصل على تقرير آخر مفصل عن حالتها المدرسية وسلوكها واجتهادها ..

وسرعان ما جاء لى التقربر .. ومنه يظهر بوضوح أن مسلك الفتاة فى المدرسة يختلف تماما عن مسلكها فى البيت ، فمعلمة الفصل تصفها فى التقرير بصفات النشاط والفطنة والتيقظ وحسن الاصغاء والاعتماد على النفس والامانة فى العمل

وجاء فى التقرير أيضا بند خاص بعلاقاتها بزميلاتها.. فهن يرين فيها المرح والتهذيب . وعندما عرفن من فمها أنها تعانى من سوء المعاملة فى بيت خالها ، نقلن ذلك الى المعلمة .. وعلى هذا الاساس أرسلت المدرسة الشكوى الينا لتحقيقها

وهكذا اجتمعت لى ثلاثة تقارير .. التقرير الاول من زوجة الخال التى كانت تشرف على تربيتها ، والتقرير الثانى من الفتاة ، والتقرير الثالث من المدرسة . وهى تتضمن مجموعة ضخمة من المعلومات ، الا أنها لاتكفى لتكوين رأى قاطع

اننا مثلا اذا عمدنا الى مقارنة أقوال زوجة الخال بأقوال الفتاة ، لم نستطع أن نقطع بأن هناك سوء معاملة بمعنى الكلمة .. لان الفتاة نفسها تعترف بطريقة غير مباشرة بأن سلوكها فى البيت غير اجتماعى ، فهى دائما « تبدو » لمن لايعرف حقيقة أحوالها شاردة ، مشاغبة ، عنيدة ، كسولا .. فى حين أن سلوكها فى المدرسة لا غبار عليه اطلاقا . وما عرفناه من المامنا السابق بموضوعات الانحراف ، يجعلنا ندرك أن زوجة الخال قد خلطت بين العرض والمرض ، وان اهتمامها كان موجها نحو التغلب

على مظاهر الانحراف لا نحو علاج أسبابه ..

والواقع أن حالة هذه الفتاة أكثر صعوبة من حالة الفتى الذى درسناه فى الفصل السابق .. فالفتى كان ينفس عن انحرافه الكامن بمظاهر التشرد والتسكع ، أما هذه الفتاة فانحرافها الكامن لايسفر عن وجهه الا فى البيت .. أما فى المدرسة فلا . وهذا فى حد ذاته أمر محير ، لان من خصائص الصدمة النفسية عادة أن تجعل الانحراف الكامن يتحول الى انحراف سافر بشكل واضح ومستمر .. فى حين أن الصدمة التى حدثت للفتاة بموت أبويها لاتظهر أعراضها الا فى اطار معين هو البيت .. وتلك ظاهرة لا ينبغى أن نتركها تمر بغير تفسير

واعادة النظر فى حالتها ، تطلعنا على أن الذكريات المؤلمة التى تراودها تسبب لها أحيانا عذابا شديدا .. أما أحلام اليقظة واسترجاع الذكريات السارة ، فكان يشعرها بلذة عظيمة ..

واحلام اليقظة شيء مألوف .. كلنا نجربه فى بعض الاوقات . وكل واحد منا اذا اشتد سخطه على ظروفه الواقعية يهرب منها الى عالم الاحلام . وهذا مايعبر عنه فى التحليل النفسى بأننا نسحب جانبا من طاقتنا الحيوية من عالم الواقع ، فيزيد ذلك من قوة الاوهام والتخيلات ، ويجسم أهميتها .. وهى عملية طبيعية لا غبار عليها بشرط أن تظل علاقتنا العادية بالعالم الواقع من حولنا مستقرة . اما اذا كان الجانب المسحوب من طاقتنا الحيوية المخصصة لعالم الواقع ضخما للغاية ، فلابد فى هذه الحالة أن يختل ميزان علاقتنا بالواقع ، ويصبح تكيفنا معه أمرا اشق من المعتاد

والمفروض ان الشخص السوى يستطيع أن يطرد

التخيلات اللذيذة التى تستولى على ذهنه متى دعاه نداء الواجب للقيام بأعماله العادية ، فيطوى أحلام اليقظة جانبا ويتركها الى وقت يكون أكثر ملاءمة لها .. مثل ساعة النزهة ، أو عندما يكون راكبا قطار المترو ، أو عندما يأوى الى فراشه لينام

الا أن من الناس من يلجأون الى احلام اليقظة مكرهين ، لان الحياة الواقعية صارت مثار آلام شديدة لهم .. يعجزون عن احتمالها . ومتى هربوا الى أحلام اليقظة ، فقد لايتيسر لهم التخلص من سلطانها .. ويفقدون بالتالى كل اهتمام بالحياة الواقعية العادية ، بعد أن تجمع اهتمامهم كله فى عالم الاحلام والاوهام . وهذا هو مايعتبر « حالة مرضية »

وقد مر بنا من قبل أن التجربة الانفعالية الشديدة الوطأة تحدث أحيانا مايسمى بالصدمة النفسية ، وأن الصدمة النفسية تسبب اضطرابا شديدا فى العمليات النفسية .. هذا الاضطراب قد يؤدى الى انحراف كامن تحوله المناسبات الى انحراف سافر

وفتاتنا لم تكن استجابتها للصدمة النفسية مثل استجابة الفتى الذى درسنا حالته آنفا .. فهى متجهة الى امتصاص هذه الصدمة وهضمها . أما الفتى فقد كبت الصدمة ، وأدى الكبت بعد تغير البيئة الى ظهور الانحراف فى صورة سلوك غير اجتماعى . وليس فى وسعنا أن نجد تعليلا لتباين طريقتهما فى الاستجابة للصدمة المؤلمة .. ولكننا لا نعدو الواقع اذا قلنا أن الفتاة وقفت فى منتصف الطريق المؤدى الى التغلب على الصدمة ، فهى لم تستطع أن تنسى تمام النسيان الكوارث المؤلمة التى نزلت بها . ولذا كانت هذه الكوارث تبرز الى مستوى

الشعور على شكل ذكريات اليمة مثيرة للانقباض والفزع
وفي الوقت نفسه جاء تغيير البيت بعامل جديد ، اذ أبعدت عن الجو المألوف لها العزيز عليها .. فراحت تحاول تعويض هذا الحرمان عن طريق أحلام اليقظة

والظاهر أن هذه الاوهام الجميلة يسرت لها ، بعد مدة كافية من الزمن ، أن تتغلب على الصدمة المؤلمة وتهضمها .. فجعلت تستزيد من هـذه الاوهام . وقد رأينا كيف كانت تستغرق في أحلامها وشرودها أياما متعاقبـة ، ولا تستطيع الرجوع الى عالم الواقع الا بجهد جهيد

وكان من الممكن أن نعلل هذا التناقض بأن الفتاة تعاني من اضطراب نفسي ، لولا أن سلوكها في المدرسة يختلف تماما عن سلوكها في البيت . والفتاة نفسها تعترف بأنها لا تمارس أحلام اليقظة وهي في المدرسة ، ولا تشعر متى دخلتها بأي علامة من علامات الاضطراب الداخلي

وهذا من شأنه أن يدعونا الى القول بأن الفتاة على عتبة الاصابة بعلة نفسية خطيرة لا شأن لها بالانحراف ، وانها اذا لم تكف تماما عن أحلام اليقظة ستنقطع كل صلة لها بعالم الواقع .. وتصير نهبا لتيارات الاوهام ..
والآن سنتتبع كيفية حدوث النوبات لها :

انها كلما شعرت بالارتياح في عالم الواقع وأمكنها ان ترتبط بصلات الصداقة الودية ، لم تجد في نفسها حاجة الى الاوهام التي تبعدها عن ذلك الواقع اللطيف . وهذا تماما هو حالها في المدرسة .. أما في البيت فلا تستطيع ان تشبع رغبتها في الصداقة والطمأنينة والارتيـــاح ، فضلا عن أنها تشعر في بيت خالها بأنها عالة على الرجل وزوجته ، وانهما يحتملانها على مضض .. وهي التي كانت

معززة مكرمة محبوبة فى بيت أبويها • ولا تطيق ان تتصور نفسها شبه خادم ، تقوم برعاية الطفل الصغير وتنظيف البيت والارميت بالجحود من زوجة خال لاتفهم همومها ولا تدرك آلامها ولا تعطف عليها • وفى هذا الاطار تهرب من الواقع لتشبع كل رغباتها المكبوتة فى عالم الاوهام اللذيذة

وأدركت أنه من المحال أن أدخل فى رأس زوجة الخال حسن التفهم لحالة الفتاة ، بحيث تغير اتجاهها نحوها .. ولم يبق أمامى الا أن أعمل على اقصاء الفتاة عن جوالبيت بسرعة

ولم يتردد خالها فى الموافقة .. ولكن المشكلة صارت : أين نجعلها تقيم ؟ فاذا عهدنا بها الى أسرة أخرى كنا كمن استبدل النار بالرمضاء ،لان الوضع لن يتغير بالنسبة لنفسية الفتاة •• فلم يكن هناك بد من ادخالها مؤسسة تحت أشراف معلمة ذكية عطوف لها دراية بالتحليل النفسى

واستطاعت هذه المشرفة ان تستدرج الفتاة الى التحدث عن فجائعها بافاضة •• فأدى ذلك الى تخلصها من آثارها الباقية . وفى الوقت عينه ، مهدت للفتاة عقد صداقات مع بنات من سنها بحيث تشعر معهن بالرضا والارتياح والسرور •• فلا تلجأ الى احلام اليقظة • وبالفعل لم يمر سوى عام واحد حتى ظهر عليها تطور حسن جعلنا نطمئن عليها ••

ومما تقدم ندرك أن هذه الفتاة لم تكن منحرفة ، وان الصدمة النفسية عرضتها لخطر المرض النفسى أو العصاب .. لا لأزمة الانحراف العادى

وهذا يوضح لنا أن نتائج الصدمة النفسية ليست واحدة

فى جميع الاحوال ، وان الانحـــراف ليس هو ثمرتهـــا الوحيدة ..

***

وكى نزيد الامر وضوحا فيما يختص بالصدمة النفسية ومايترتب عليها ، سنتناول حالتين آخـــرين .. أولاهما لفتاة فى الخامسة عشرة طردتها المدرسة لتغير احوالها ، مع أنها كانت قبل ذلك مجتهدة جديرة بالثقة وشـــديدة الشعور بالمسئولية . أما الحالة الثانية ، فلفتــــــاة فى الثانية عشرة من عمرها لا هم لها الا ان تدخل الرعب على قلوب زميلاتها فى المدرسة !

وحاولت المشرفة مع الفتاة الاولى كل ما فى وسعها .. ولكن هذه المحاولات لم تؤد الا الى تفاقم الحالة ، وازداد عناد الفتاة وشغبها حتى لم يعد من الممكن بقاؤهـــا مع زميلاتها

ولما أرسلوا الفتاة الى مكتبى ، أخذت تبكى بشـــدة وتولول من غير ان يكون هناك أى داع لذلك . وجلست هادئا الى أن قـــــالت لى بين زفـرات النحيب المتقطع أن الاضطراب بسبب حلم فظيع يراودها باستمرار أثنــــاء نومها

وبطبيعة الحال سألتها عن مضـــمون ذلك الحلم ، فعرفت أنها ترى امها التى ماتت منذ مـــدة وجيزة تظهر فجأة فى أحد اركان حجرة النوم .. ثم تتقدم نحوهـــا وتجلس بجانبها على حافة الفراش ، وترفـــع يدها ببطء كأنها تهم بخنقها .. وفى كل مرة كانت تصحو من نومهـــا مذعورة وهى تصرخ صرخات الاســـــتغاثة قبل أن تزهق أنفاسها !

وبعد ان انتهت من سرد الحلم ، أخذت أسـألها عن الاحـوال فى البيت ، وهل كانت أمهـا الراحلة تشـملها بالرضا .. فأخذت تسهب فى وصف البيت بمـا يوحى بأنها كانت أسعد فتاة فى العالم • وأطنبت فى وصـف علاقة حب أمها لها اطنابا جعل ذهنى ينصرف الى العكس تماما •• ولكنى لم أظهر شيئا وسألتها :

ـ ولكن ألم تكونى أنت مصدر مضايقات لها احيانا ؟

فسكتت طويلا وتجاهلت السؤال .. فلم أعده عليها ، ووجهت الحديث الى موضوعات أخرى • ثم فجأة رجعت الى موضوع الام ، ولكن بصـورة هادئة كأننى غير متعمد • فقالت الفتاة ان أمها مرضت مرضا ألزمهـا الفراش مدة طويلة قبل موتها ، ثم ذكرت فى معرض الكلام أنها سرقت بعض ملابس أمها وهى مريضة •• فلم أترك هذه المسألة تمر ، وطلبت منها أن تروى لى جميع تفاصيل هذه السرقة

وذكرت لى أن أمها كانت فى المرحلة الاخيرة من مرضها ، عندما وقفت الفتاة امام باب المنزل مع صاحبة لها •• واذا بصاحبتها تدخل فى رأسها انه لا لوم عليها اذا استولت الآن على بعض ثياب أمها ، لانها ستموت قريبـا • وبعد موتها لن يكتشف أحد هذه السرقة ! ويمكنهما التصرف فى الثياب وبيعها واقتسام ثمنها !

وفى صباح الغد كانت الفتاة مشـغولة بأعمال المطبخ حين حضرت صاحبتها لتأخذ الثياب •• وكانت لم تزل فى صندوق الام بحجرة نومها • ولكن الفتاة كانت مترددة لاتستطيع أن تستقر على رأى فى الموضـوع ، وحاولت ان تقاوم اغراء صاحبتها لها بالسرقة .. الا ان صاحبتهـا استطاعت أن تقضى على ترددها وهونت عليها المسألة :

ـ المسألة بسيطة للغاية ٠٠ فالصـــندوق أمامك فى الحجرة ، وليس عليك الا أن تتسللى على أطراف أصابعك ، وان تتنبهى جيداً حتى لا تصطدمى بشىء ، أو تتعثرى فى البساط لكى لا تتنبه لدخولك ثم افتحى الصندوق بهدوء فلا تسمعك ولا تشعر بك ، لان وجهها فى هذه اللحظة الى ناحية الحائط فلا يمكن أن تراك

وانقادت الفتاة لهذا الاغراء ودخلت حجرة أمهـــا ٠٠ وبقيت صديقتها عند باب المطبخ تستحثها وتشدد عزمهـا باشارات من رأسها كلما رأتهـــا مترددة ، أو تفكر فى الرجوع ٠ وكانت الفتاة قد أخذت مفتاح الصندوق معها ، ولكنها وجدت قفله مفتوحا ٠٠ فرفعت الغطـــاء ، واذا به يحدث صريراً أزعجها فسقط المفتاح من يدها ٠ واستولى عليها ذعر شديد خشية أن تتقلب أمهـــا وهى على فراش الموت فتراها ، وخطفت على عجل ما وقع تحت يدها من ثياب أمهـــا واسرعت نحو المطبخ فألقت بالمسروقات الى صاحبتها التى جعلت تضحك منها

وانصرفت صاحبتها بالمسروقات بعـــد ان وعدتهـــا بالحضــــــور فى اليوم التالى ، ريثمـــا تبيع الثياب ٠٠ وفى اليوم التالى كانت الصديقة قد باعت الثياب فعلا وحضرت فى الموعد ، ولكنهما بدلا من ان تتقاسما الغنيمة قررتا التوجه معا الى مدينة الملاهى لركوب الارجـوحـة وقطار الرعب وما الى ذلك من الالعاب المســلية الموجودة هناك ٠٠ وما تبقى بعد ذلك من النقود انفقتاه فى أحـــد محال الحلوى

ولم تفكر الفتاة فى أمها التى تركتها بمفردها على فراش الموت ٠٠ بل انصرفت انصرافا تاما الى أسباب اللهو مع صاحبتها ٠ ولما عادت الى البيت وجدت أمهـــا قد لفظت

أنفاسها ، ولم يحزنها موتها .. الا أنهـــا غضبت لوجود أقاربها فى البيت وانقضاضهم عليهــــا باللام والتقـــريع لقسوة قلبها • وبدلا من ان تخجل من نفسها ، صـــعرت خدها ورفضت ان تخبرهم أين كانت •• ولم تشعر بأى تأنيب لما أقدمت عليه من السرقة •• ولما اكتشف الاقارب العبث بالصندوق واتهموا أشخاصا آخرين بالسرقة ، لم تشعر بوخز ضميرها ولم تكترث لاتهام الابرياء

وقد ذكرت الفتاة كل هذه الحقائق وهى فى نوبة بكاء حادة ، وصارحتنى بأنها لم تعد تطيق هذه الذكريات المؤلمة ولا ذلك الحلم المزعج الذى صار يراودها بعد ان أظهرت المشرفة النفسية عطفا خاصاعليها ، وقالت فى سياق حديثها عن المشرفة :

ــ ولكن لم اذكر لها متاعبى لانى خشيت ان تقلع عن حبى بعد ذلك بسبب قسوتى على أمى

وجمعت الفتاة بالمشرفة •• وبينت لها الموقف ،فأظهرت المشرفة استعدادا حسنا للادراك والعطف . ولما تخلصت الفتاة من عبء ذنبها بالاعتراف عادت الى المدرسة واظهرت انتظاما واستقامة ، ولم يحدث منها اى ازعاج بعد ذلك

ولكن عمل المشرفة لم ينته .. فكانت تقضى معها كل ليلة فترة طويلة قبل النوم تشجعها فيها على التحدث عن أمها ، مما جعل خوفها من الحلم المزعج يقل تدريجيا •• وساعدها تقمصها لشخصية المشرفة على أن تغير سلوكها وتتكيف بالواقع وتثق بنفسها

***

أما الحالة الثانية فهى حالة الفتاة التى لاهم لها الا بث الفزع فى قلوب زميلاتها •• وقد لاحظت أنها تختار دائما الاشياء ذات اللون الاحمر لتصنع منها الاقنعة المخيفـــة ،

وأنها تميل الى كل ما هو احمر •• سواء كان ورقا أو خرقا أو أشرطة

وبعد محاولات طويلة ، اكتشفنا أنها فزعت فزعا شديدا وهى فى باكورة طفولتها • وقد حدث ذلك فى احد الاعياد « الكرنفال » فقد كانت تهبط سلم البيت لتشترى شيئا من البقال ، فقابلت عند المدخل شخصا متنكرا بقناع أحمر •• فصرخت وعادت مرتعدة الفرائص الى المسكن ، والشبح المقنع يجرى وراءها ويضربها بمذبة فى يده ، وتقول انه تبعها الى داخل المسكن . ولما هربت منه تحت السرير دخل وراءها تحته .. ولم تزل تذكر كيف جذبها من تحت السرير ، ولا تذكر شيئا عما حدث لها بعد ذلك

ولم يكن هذا الاكتشاف كافيا لشفاء الفتاة او تحسن سلوكها ، فواصلنا البحث فى ذكرياتها القديمة الى أن تذكرت تجربة مرت بها وهى فى الرابعة من عمرها • وكان ذلك قبل انفصال والديها بمدة وجيزة •• فقد جاءت بها أمها الى سيدة ذات شعر أحمر ، وأخذت السيدتان تتحدثان •• ثم زادت حدة الحديث فتشاجرتا ، وشدت أمها شعر السيدة الاحمر • وكانت الفتاة بجوار أمها •• فترتب على العراك سقوطها على وجهها وسيل الدم الاحمر من جرح أصابها . وبعد ذلك طردتهما السيدة ذات الشعر الاحمر والوجه الملطخ بالدم من أثر خرابيش الام !

ولما عادت الفتاة وأمها الى البيت ، نشب شجار بين الوالدين •• وتذكر الفتاة أن هذه كانت المرة الاخيرة التى رأت فيها أباها ، اذ ان هذا الشجار ترتب عليه انفصال والديها

وبذلك اتضحت العلاقة الوثيقة بين الاشياء ذات اللون الاحمر وبين فزعها • وتبين أنها تحاول أن تتخلص من هذا الفزع بتسليطه على زميلاتها

المشاكس

وذات يوم جاءتنى أم ومعها ابنها البالغ من العمر ١٨ سنة .. وشكت لى من اصراره على التعطل والكسل والاعتداء والشغب ، فأشرت بعرضه أولا على طبيب الامراض العصبية .. فقرر ذلك الطبيب انه خال من علامات الاضطراب العصبى ، ورجح أن سبب انحرافه هو عدم استقرار أحوال الاسرة

والام هى التى تعول الولد وأخوته بعد موت زوجها منذ سنوات . وظلت تعانى من الضنك الى ما قبل عام حين التحقت ابنتها الكبرى بمشغل للحياكة نظير اجر أدخل على حياة الاسرة شيئا من الرخاء النسبى . وهذه الابنة أكبر من الغلام بسنة .. وهناك أخوات ثلاث أصغر منه ، أعمارهن ١٥ و ١٣ و ١٠ سنوات

ولما جاءنى التقرير طلبت من الام ان تنتظر فى القاعة الخارجية ، ريثما أقابل ابنها على انفراد . ودخل الغلام فاذا به فتى أشبه بالفتيات فى خجله وارتباكه . ولم تنحل عقدة لسانه معى بسهولة .. فكان من العسير أن أصدق فى مثل هذا الغلام صفات الشراسة والعدوان . ورجح عندى من اول وهلة أن العدوان عنده ليس مرده الشراسة . وبدأت من هذه النقطة ، فحاولت أن أستدرجه وأن أظهر ما قد يكون في طبعه من جوانب الدماثة .. وبدأ يقص على سيرة حياته :

ـ لقد أتممت الصف السابع فى المدرسة ..

ـ وكيف جاء آخر تقرير عنك ؟

ـ لا بأس به ..

ـ هل تنوى متابعة الدراسة فى المدرسة الثانوية ؟

ـ ان وفاة أبى لم تدع لهذا التفكير محلا ..

ـ ماذا صنعت اذن بعد الصف السابع ؟

ـ بحثت عن عمل ..

ـ أى عمل ؟ ...

ـ كنت أحب أن أصبح نقاشا .. أطلى الجدران . ولكنى لم أجد من يقبلنى صبيا فى هذه المهنة

ـ فماذا صنعت ؟ ..

ـ وجدت بعد قليل وظيفة ساع فى مخزن أدوية ..

ـ وكم مكثت بها ؟ ..

ـ أربعة أسابيع أو خمسة ..

ـ لماذا تركتها ؟ ..

ـ أمى هى السبب .. لم أكن أرى بأسا فى هذا العمل، ولكن أمى كانت تجده بلا مستقبل . كانت تريد لى أن أتعلم حرفة ، فتركت مخزن الادوية وألحقتنى بورشة نجارة .. وهكذا غدوت صبى نجار

ـ وهل كنت تحب هذه الحرفة ؟

ـ انها حرفة جميلة .. وبقيت فيها نحو عام تقريبا ، الى أن اتضح أن صاحب الورشة ليس متخصصا فى هذه الصناعة ، ولا يسمح له القانون بتخريج الصبيان

وتعليمهم .. فتركته وأنا متألم . وعافت نفسى حرفة النجارة ، فلم أقبل الالتحاق بورشة نجارة أخرى . ثم وجدت لى أمى عملا هنا وعملا هناك .. فكنت أتنقل من مكان الى آخر ، الى أن أصبحت موظفا صغيرا فى شركة . ولكن الشركة أفلست بعد مضى أقل من عام .. وعادت أمى تلح فى أن أعود للنجارة .. ولكنى كنت قد سئمت جميع أنواع الحرف ولم أعد أرغب فى أن أتعلم شيئا جديدا .. فرأيت أن أفضل عمل يناسبنى هو عمل الساعى .. وفعلا اشتغلت ساعيا ..

ـ ولماذا تركت هذا العمل الاخير ؟

ـ بعد ستة أسابيع سعيدة ، وجدت رئيسا سمجا صار يتعمد اصدار أوامر مهينة الى ، لم تقبلها كرامتى .. فتركت العمل . وهنا بدأت أمى تقيم الدنيا وتقعدها بسبب ما تسميه رذيلة الكسل وحب المشاغبة .. وتوسط أحد أقاربى بيننا ، وأوجد لى عملا فى مطحن أقيم فيه بعيدا عن البيت ..

ـ وماذا حدث لهذا العمل ؟

ـ بقيت فيه ثمانية أسابيع .. ثم وجدت أنه لا يلائمنى . فعدت الى البيت ، ومرة اخرى ثارت أمى .. وخصوصا لان بقائى بلا عمل هذه المرة استمر نحو ستة أشهر قبل أن أجد وظيفة فى مخزن للبقالة ، كنت أقوم بتوصيل طلباته للعملاء

ـ ولماذا تركت هذه الوظيفة ؟

ـ وجدت فيها صعوبات ..

ـ وماذا تصنع حين تكون بلا عمل ؟

ـ أنا لا أريد أن أكون عالة على أمى ... ولى جسد

قوى واعضاء سليمة . وفى فترات خلوى من العمـــل أساعدها فى أعمال البيت وأجد فى ذلك لذة كبيرة

ـ وما أحب أعمال البيت اليك ؟

ـ غسل الاطباق وتنظيف المنزل ..

ـ ولكنك لا تستطيع أن تفسل الاطباق وتنظف البيت طول الوقت

ـ بقية الوقت أقضيه فى القراءة ..

ـ أى نوع من القراءة ؟ ..

ـ كل ماهو مطبوع أحب قراءته بلا تمييز أو تفضيل..

ـ والآن حدثنى عن علاقتك بأخواتك وأمك ..

وعندئذ ظهر على وجهه الانفعال ..وفهمت من مضمون كلامه أنه ينفر نفورا شديدا من أخته الكبرى ، وان اخواته على العموم يتخذن منه مادة للسخرية بسبب فشله فى حياته العملية فشلا متلاحقا .. والاخت الكبرى تتزعم هذه المظاهرات !

ـ وماذا يكون موقف أمك فى هذه الحالة ؟

ـ تقف فى جانب بناتها عندما أثور عليهن .. وذلك بدلا من ان تدافع عنى ، مع أن جميـــع الاسرات تجعل للغلام مكانة لا يمكن أن تقل أبدا عن مكانة الفتيات .. بل هو أهم منهن !

ـ وهل تكره أمك لهذا السبب ؟

ـ كلا .. بل أحب أمى جدا ..

ـ وأخواتك ؟ ..

ـ أحب الصغرى أكثرهن .. ثم التى أكبر منها .. ثم التى بعدها . أما أختى الكبرى فهى شيطانتى وسم حياتى !

ـ وما شكل أختك الكبرى ؟ ..

ـ أطول منى .. ولها وجه صغير وعينـــان زرقاوان وشعر أشقر

وكانت هذه هى أوصاف أمه كما رأيتها ..

ـ وهل تشبهها أخواتك الصغيرات ؟ ..

ـ كلا .. بل يشبهن أبى شبها كبيرا ..

ـ وهل هناك أسباب أخرى للخلاف ؟ ..

ـ هناك حب أختى الكبرى للسيطرة .. وهــذا شىء أكرهه ، وهو السبب فى تركى لكثير من الاعمال ، لانى لا أطيق أن يتسلط على أحد .. ثم هناك مســـــألة الدين ..

ـ ماذا تعنى بمسألة الدين ؟

ـ أمى واخواتى شديدات التدين .. ويرغمننى دائما على الذهاب معهن الى الاجتماعات الدينية التى أكرهها كرها شديدا ، فأنا من أنصار الافكار التقدمية ..وآرائى فى الحياة اشتراكية متحررة

ـ وهل تتناقش معهن فى آرائك ؟

ـ كلا بالطبع ... فأنا لاأجرؤ أن أفاتح أمى فيما يدور برأسى من الافكار . وأتعذب كلما رأيت مبلغ الفرق بين أفكارى وأفكارهن ..

واحببت ان استدرجه للكلام عن الناحية العاطفية .. وبعد ان احمر وجهه وارتبك ، صرح لى بأنه يحب بنت

احدى صديقات أمه ، وأنه لذلك يسر بمصاحبة أمه عندما تذهب لزيارة صديقتها تلك

ــ وهل هذه الفتاة جميلة ؟ ..

ــ انها تعجبنى .. وان كان اخواتى ومعظم الناس يسخرون من شكلها ، ويتندرون به !

ــ وهل هذه الفتاة هى أول حب لك ؟

ومرة أخرى ارتبك الغلام ، ثم صارحنى بأنه عندما كان فى الثالثة عشرة من عمره أحب زميلة لشقيقته الكبرى ..

ــ وهل كانت جميلة ؟ ..

ــ أوه .. كانت تشبه أختى الكبرى كثيرا ، الا أن شعرها أشد شقرة وعينيها أكثر زرقة ..

ــ وهل تقابل الفتاة التى تحبها هذه الايام ؟

ــ أحيانا .. فى أوقات مختلفة متباعدة ..

ــ وفى هذه المقابلة الانفرادية .. هل تقبلها ؟

فاحمر وجهه احمرارا شديدا ، وقال :

ــ هذا شىء لا يجوز ان نفعله

ــ صف لى هذه الفتاة بالضبط ..

ــ لها شعر أسود وعينان سوداوان ..

وادركت على الفور أنها نقيض أخته الكبرى فى الاوصاف .. ثم عرفت أيضا بعد قليل انها تشبه أخته الصغرى . وعندئذ بدأت أسأله عن ذكريات طفولته .. فأخذ يسرد على مسامعى مشاهد متفرقة ، كان أولها ما حدث ذات يوم .. وكان من عادة الاسرة أن يسمع

الصغار المحفوظات والنصوص فى مباراة للالقاء فى يوم العطلة ، وتنافس ذات مرة مع أخته الكبرى وهو صغير فى القاء مقطوعة عن عيد الميلاد . وخصص والده مجموعة من الصور الملونة جائزة للفائز منهما . وظفرت أختـه الكبرى بالجائزة ، فاغتاظ ومزق الصور .. فانهال عليه أبوه ضربا بالسوط عقابا له على فعلته .. !

ومن الجدير بالذكر أن الغلام عندما ذكر هذه الحادثة بدأها مقلوبة .. فبدأ بأن أباه ضربه بالسوط ، ثم تدرج راجعا الى السبب فى الضرب

وكانت الذكرى الثانية أنه هو وشقيقته الكبرى ،كانا يفضلان فى طفولتهما لعبة العروسين .. وتقوم الاخوات الصغار بدور الذرية الصالحة لهذا الزواج !

واكتفيت من مقابلة الابن بهذا القدر ، فأخرجتـه وأدخلت الام .. فوجدتها فى حالة غضب شـديد لانى قضـيت اكثر من ساعة مع ولد خائب ، مع أنى أعرف القصة من لسانها من قبل .. فأدركت أنها تعتبر مراجعة أقوالها على أقوال ابنها نوعا من التجريح لسلطانها المطلق على الغلام . وهى سيدة نحيفة ، متوسطة الطول،صغيرة الملامح ، نفاذة النظرات ، فياضة الحيوية ،ثابتة الحنان.. عرفت خشونة الحياة منذ طفولتها . ورغم رخاء الحالة المادية بعد زواجها الا أن علاقتها العاطفية مع زوجها لم تكن على ما يرام .. فلما مات كان عليها ان تكافح وحدها طويلا لتعول الاطفال الخمسة ..

وعرفت منها أن ابنتها الكبرى هى احب الجميـع اليها .. وهى راضية عنها تماما لانها تعطيها كل ماتحصل عليه من عملها . وبفضل تعاونها صارت الحياة لينـة المهاد .. ولولا شذوذ هذا الولد الوحيد لما كان عندها

فى الدنيا ما تشكو منه ..

ــ وكيف كان زوجك ؟ ..

ــ كان رجلا قليل الاحساس بالمسئولية .. لا يهتم بالجانب الجدى من الحياة كثيرا .. فكل مافى الدنيا هين بسيط فى نظره ، وهمه من الحياة جلسة مرح وكأس شراب .. يعيش لينتهب اللذات السهلة

ــ حتى النساء ؟ ..

ــ حتى النساء ..

ــ وكنتما تتشاجران لهذا السبب ؟

ــ اطلاقا .. لم يحدث بيننا شجار صريح فى أى وقت ، لانى كنت أبتعد بنفسى عن هذا الجانب من حياته ابتعادا تاما . نفضت يدى منه واعتصمت بتدينى وصومى وصلاتى . ولا أدرى لماذا كان الناس يضيقون بتدينى الشديد ، واعتكافى عنهم وعن ضجتهم ، مع أننى لا اتدخل فى حياتهم التى لا تعجبنى ولا ترضى مبادئى السامية

ــ ولكن لماذا ساءت أيضا علاقتك بابنك ؟ ..

ــ انه ولد تافه لاقيمة له .. ولولا مشاحناته مع أخواته لما ازعجنى أمره . ولكنه لا يكتفى بخيبته ، ويحاول دائما ان يملى ارادته ويفرض سيطرته عليهن .. فمن الطبيعى أن يرفضن ذلك ويثرن ضده

ــ ولكنهن يسخرن منه ..

ــ هذا لانه أبله .. وتصرفاته وتعبيراته البلهاء تثير ضحكهن ، فيثور وينقض عليهن بشراسة هوجاء . ولا يستثنى من ذلك شقيقته الكبرى التى يعيش من فضل كدها .. فأبادر بابعاده عن البيت حتى لا يحدث مالا تحمد عقباه

ـ وهل يرتدع ويغادر البيت منقادا لاوامرك ؟

ـ أوه .. انه يطيعنى طاعة تامة ولا يعصى لى كلمة ، ولا يتجاسر أن يتحدانى كما يفعل بأخواته ..

ـ لماذا ؟ ..

ـ لانه يعلم تماما انه لو فعل لاعطيته علقة ساخنة بالسوط ..

ـ حتى فى هذه السن ؟ ..

ـ حتى وهو فى ضعف هذه السن ! .. انه امامى يتصرف تصرف الطفل . وعندما يكون بلا عمل يهتم بخدمة البيت ونظافته اكثر من اى فتاة

ـ وهل هو بارع فى النظافة ؟ ..

ـ انك اذا رأيت حجرته ستدرك أنه أقدر من جميع أخواته الفتيات على الترتيب والتنظيم والتنظيف . وهو ولد مرتب وانيق فى جميع عاداته .. ولا تخلو اخواته من فوضى ، وعندئذ يثور عليهن . ولكن نظافة جسمه ـ ولا سيما رقبته واذنيه ـ تحتاج الى اشراف مستمر من جانبى .! هذا فى الوقت الذى يقضى ساعات امام المرآة وهو يصفف شعره أو يسوى رباط عنقه . وهذا يثير عليه اخواته لانه يستأثر بالمرآة دونهن ، غير مفكر الا فى ذاته . وحين يكون متعطلا يسترخى طول الوقت فى البيت بلا مبالاة ، وكأن هذا الوضع طبيعى بالنسبة لفتى كبير فى مثل سنه . وليس من المناسب أن أنفق أنا وابنتى الكبرى على شاب طويل عريض خصوصا وانه غير أمين ..

ـ هل يسرق ؟ ..

ـ انه يغالط فى مبالغ صغيرة ، كلما كلفته باحضار شىء من دكان البقالة ..

ـ وماذا يصنع بهذه المبالغ الصغيرة ؟ ..

ـ يشتري بها حلوى كما يصنع أطفال الروضـــة ، ويأكلها خلسة ..

***

وكلام الام قد يجد صدى فى النفوس .. والكثيرون سيعذرونها لشكواها من هذا الولد البليد . ولكن مهمتى ليست مهمة القاضي ، بل مهمة المعالج المرشــد .. فالمشكلة هى مشكلة الغلام قبل كل شيء . وهذه المشكلة هى التى يجب ان نعالجها لنقوم انحرافه

ان سلوك الغلام لا اجتماعي .. فيجب أن نبحث عن « الموقف النفسى » الذى أدى الى هذا الانحراف . ولذلك يجب الا تهمنا الاحداث فى حد ذاتها .. بل من حيث تأثر الولد بها .. فعلى ضوء طريقة تأثره سنعرف حالتـــه النفسية ..

ومعنى هذا بالطبع اننا يجب أن نقف الى جانب الغلام حتى نفهم تصرفاته .. وكأننا نقول لانفسنا :

ـ يجب أن نفترض أن الغلام على حق فى تصرفاته ، وان نفتش عن الاسباب التى دفعته الى هذه التصرفات ..

أما الزجر والنهر والمواعظ فلا تؤدى الى نتيجة ..

وأول ظاهرة تلفت النظر هى شراسته فى المنزل نحو أخته الكبرى .. فهذه الشراسة لابد أن تكون مظهـــرا لشعور كامن فى نفسه من جهتها .. ولابد أن هـــذا الشعور من القوة بحيث يدوس على الاعتبارات الاجتماعية والنواهى الخلقية .. !

وقد لاحظت أن الولد دمث رقيق ، ليس شرســـا

بطبعه .. وهذا يرجح ان غضبه على أخواته يحدث فى نوبات انفعالية لها علاقة بالاخت الكبرى بالذات دون سائر الاخوات ..

واذا رجعنا معه الى تاريخ طفولته ، وجدنا جذور التنافس بينه وبين أخته الكبرى .. والتفوق الذى أحرزته البنت عليه ، مما أدى الى تمرده حتى عاقبه أبوه بالكرباج !

ومن خبرتى أنا وغيرى فى التحليل النفسى ، نعلم أن الذكريات التى من قبيل هذه الحادثة تكون فى الغالب ستارا لذكريات كثيرة مماثلة لا تظهر الا مع التقدم فى التحليل . والمهم ان الوالد فى هذه الحادثة كان قاسيا على الطفل ، ونصر أخته عليه بلا هوادة . وقد يكون الطفل مخطئا ، ولكن الواقع الذى لاشك فيه أنه آمن بمحاباة أبيه لأخته محاباة ظالمة أصلت الكراهية فى نفسه ضدها ..

اما بالنسبة للاخوات الصغيرات ، فتفسير موقفه راجع الى شعوره بعدم التقدير أو هوان القيمة .. فواضح أنه الأم تفضل البنات على الولد . ومن شأن هذا التفضيل أن يغرس فى قلب اى ولد نوعا من العداء للبنات ..

ومن الثابت بتجارب التحليل النفسى ، أن كل طفل يعتبر أخوته ذكورا واناثا منافسين له فى عطف أبويه . ولكن هذا التنافس لا يترك آثارا عميقة ، اذا تحلت الامهات والآباء باللباقة الكافية . ولكن يحدث أحيانا أن تبدر منهم أخطاء لا يلتفتون اليها ، تؤدى الى فتور العلاقة بين الاخوة والاخوات حتى بعد أن يكبروا وتنتهى مرحلة التنافس ..

وعلى ضوء هذه الاعتبارات ، نلاحظ أن والد الغلام لم

يكن يشمله بعطفه ، وان أمه جافية الطبع بالنسبة له ..

وكل هذا قد يكفى لتعليل الكراهية البعيدة المدى بينه وبين شقيقته الكبرى ، لولا أن هناك حادثة أخرى من حوادث الطفولة تناقضها وتدل على أن الفتاة لم تكن دائما عدوته .. فهناك لعبة العروسين ، وهو يعترف أنها كانت لعبته المفضلة فى الصغر . وهذا لا يحدث اذا كانت هناك عداوة بين الاطفال بصورة حقيقية

وهذه اللعبة ليست من البراءة على الدوام كما يبدو عليها .. بل هو دليل على وجود انفعالات عميقة ليست بعيدة كل البعد عن الصبغة الجنسية . ولذا قد يترتب عليها احساس داخلى بالاثم ، ينتج عنه رد فعل مضاد صادر من اللاشعور فى حالة تضخم الخوف وتأنيب الضمير ، لان الطفل فى هذه السن لا يعرف كيف يتخلص من رغباته التى يشعر بأنها محرمة او فيهاعنصرمحرم.. فيكبت هذه الرغبات وينسى كل ما يتصل بها ، بمافىذلك شعوره نحو شركائه فى اللعبة المحرمة .. لان مشاعر المودة بهم تذكره لاشعوريا بالشىء المكبوت ، فتحدث من ذلك غواية خطيرة . وهكذا لاتجد الرغبة المحرمة المكبوتة نحو الاخت سبيلها للظهور صراحة ، فتظهرعلى صورة نوبات من الكراهية والحقد !.. وفى هذا الثوب المتنكر تجد الطاقة الانفعالية المكبوتة متنفسا فى هيئة تنكرية ، لا يعترض عليها العقل الواعى وما يفرضه من رقابة اخلاقية واجتماعية

وقد زادت هذه الحالة تعقدا عند الغلام فى مرحلة البلوغ .. ومن المعلوم ـ بفضل تجارب التحليل النفسى ـ أن الشاب فى هذه المرحلة يجب ان يتخلى عن موضوعات حبه داخل الاسرة ، كى يتوجه بحبه الى موضوعات خارج

الاسرة فان لم يحدث ذلك فى الوقت المناسب نتج مايسمى فى علم النفس بالتثبيت الذى لا يمكن التحلل منه بعد البلوغ ...

وواضح من مناقشة هذا الفتى ، أنه قبل البلوغ فشل فى تحويل موضوعات حبه من داخل الاسرة الى خارجها .. بدليل أن الفتاة التى كان يقابلها على انفراد لم يكن يبدى أى محاولة نحو تقبيلها مثلا .. واحمر وجهه وهو يذكرنى أن هذا العمل يعتبر عيبا لا يليق صدوره . والتعبير بالعيب فى هذه الحالة ، انما هو صورة مقنعة لاحساسه بأن طاقة عواطفه كلها متجهة الى داخل الاسرة

ونلاحظ أن الفتاة التى أحبها قبل البلوغ مباشرة ، وهو فى الثالثة عشرة ، كانت زميلة لاخته الكبرى وتشبهها كثيرا شكلا وسنا وموضوعا وطباعا . واما الفتاة التى يحبها حاليا ، فهى على عكس ذلك تماما .. أى لا تشبه أخته فى شىء . وهذا يعزز القول بأنه عندما كبت لعبة الزواج ، وكل ما يتصل بها ، كبت ايضا شعوره نحو أخته وكل ما يذكره به . وتحول من الاعجاب بفتاة تشبه أخته الى فتاة أقل جمالا ، ومختلفة عن أخته تماما فى كل شىء ، حتى ولو كان الجميع يسخرون من شكلها .. !

وكأنما كان هذا الاحتيال غير كاف للتحصن ضد عشقه المكبوت لاخته الكبرى .. فلجأ اللاشعور الى حيلة أخرى هى العداء المستمر لتلك الاخت ، كى يكون التشاجر والتناحر عازلا اضافيا بينهما . فكانت الكراهية الشعورية الواعية بمثابة صمام أمن ضد هذا العشق اللاشعورى المكبوت . ونستطيع أن نقول ان خوفه من الوقوع فى العشق المحرم قد اتضح فى سن الثالثة عشرة .. وبدأ احتياطه ضده بالتحول من حب شبيهة أخته الى حب

لفتاة تناقضها تماما ، فكأن شعوره بالاثم شمل أيضا شبيهات أخته لا اخته وحدها .. ومع ذلك لم يبتعد تمام الابتعاد عن محيط الاسرة العام ، لان الفتاة الاخيرة تشبه اخته الصغرى التى يحبها الآن أكثر من سائر الاخوات .. لان شعوره نحوها لاينطوى على عنصر العشق المحرم أو الاشتهاء !

وهذا التعليل يفسر لنا مسلكه العدوانى نحو شقيقته الكبرى على الخصوص ، فى نوبات متقطعة تختلف فى طبيعتها عن السلوك العام لذلك الشاب .. مما يدل على أنه عدوان نتيجة اسباب نفسية معينة ـ ويؤيد وجهة نظرنا سلوكه مع الفتيات عموما ، فهو سلوك ناقص أو مكفوف

وهذه الحالة تبين لنا نوعا غير نادر من انواع الانحراف عند الشباب . ويتبين لنا أكثر من ذلك الى أى حد يجب أن نتعمق فى البحث عن أسباب الانحراف والى اى مدى يجب أن نتجنب الحلول السهلة السطحية

واذا عدنا الى الغلام ، وراجعنا أقوال أمه عنه وجدناها تصفه بالطفولة ، وتعامله على أنه طفل ، وتأبى ان تعتبره رجلا .. فهو ينقاد لها فى خنوع ، وينظف المنزل ويغسل الاطباق . وذلك من أعمال النساء .. ثم ان حجرته انظف من حجرات اخواته ، ووقوفه امام المرآة اكثر من وقوفهن أمامها دليل آخر على أنوثة .. يضاف الى ذلك خجله الشديد وارتباكه

ولعل السبب فى هذا انه الولد الوحيد فى أسرة كلها اناث ، فالمشاهد ان الولد الذى ينشأ فى مثل تلك الاسرة يتخذ كثيرا من مظاهر الانوثة وصفاتها . وهذه الصفة هى التى تنفر منها أمه وتحتقره من أجلها .. فيحاول الفتى

المسكين ان يثبت وجوده ، ويفرض ارادته على اخواته انتقاما من احتقار أمه أو تخلصا منه .. فيقع فى موجب جديد لاثارة غضبها عليه !

ولكى نفهم هذه الظاهرة جيدا ، يجب أن نلم بأساليب التقمص عند الاطفال بالنسبة لوالديهم ..

- ففى الطفولة الاولى ، يكون شعور الطفل أقرب الى التعلق بأمه وان كان يحب أباه ايضا .. ثم يشعر بالغيرة من حب أمه لابيه ، ويتمنى فى سريرته لو تخلص من الاب لتخلص له الام . وهكذا تشوب محبته لابيه لطخ من الكراهية .. وهذا ما يسميه التحليل النفسى بالتعارض الوجدانى نحو الاب . وقد اطلق « فرويد » على هذه الظاهرة اسم « عقدة أوديب » .. اشارة الى زواج أوديب من أمه بعد ان قتل أباه ، مع أنه كان يجهل شخصيتهما ..

ومع نمو الطفل ابتداء من السنة الثالثة من عمره يشتد التصارع بين حب أبيه وكراهيته . ويشعر أن هذه الكراهية آثمة فيكبتها .. وهذا ما يحول « الموقف الاوديبى » الى عقدة حقيقية مكبوتة تعمل عملها من أعماق اللاشعور ولكن اذا نمت نفسية الطفل نموا طبيعيا، جاءت مرحلة فى العام السادس من العمر تقريبا تنحل فيها عقدة أوديب .. لانه فى هذه السن يبدأ فى تقمص شخصية والديه ، فان تقمص شخصية الام على الاخص غلبت عليه صفات الانوثة وقد يكون هذا الميل لاسباب وراثية أو لاسباب تتعلق بالبيئة ، وفى هذه الحالة يقل تقمصه لشخصية الاب ، ويقل ميله الى جميع صفات الرجال ، ويشب ناقص الرجولة .. وعندما يصل الى المراهقة تطول مرحلتها كثيرا !

وهذا ما حدث بالنسبة لفتانا .. فقد مات أبوه ـ وهو في العام الثالث عشر ـ وكان عليه أن يغدو رأس الاسرة في موضع أبيه . وهو شيء طبيعي لو ان نموه النفسي كان صحيحا ، وكان تقمصه لشخصية الاب هو الغالب عليه ..

وقد حاول المسكين ذلك التقمص في تلك السن المتأخرة .. وهذا هو سبب محاولته السيطرة على أخواته ، الكبرى والصغريات . ولكنه فشل .. وساعد موقف امه منه على ذلك الفشل . فحدث في داخل نفسه صراع بين صفات الانوثة وصفات الرجولة، ومطالبها ومقتضياتها . ولمست أخواته انه أقرب الى جبن النساء وانقيادهن منه الى صلابة الرجال ، فكن يسخرن منه .. فتصيب هذه السخرية النقطه الحساسة فيثور غضبه ويهجم عليهن في نوبات تفسر بأنها سلوك عدواني .. مع ان فشله في تقمص شخصية ابيه ناتج بوضوح عن تقمصه الشديد لشخصية أمه

ولم يقف الامر عند هذا الحد .. فهناك نوع اضافي من الصراع حدث لديه هو الصراع بين مبادئه الاشتراكية المتحررة وبين التدين المتزمت الذى تتصف به أمه وأخواته . فهو غير مقتنع بمعتقدات أمه ، ولكنه أضعف من أن يجاهر بمعارضتها . وينقاد لها حين تأخذه الى الجمعيات الدينية ، مما يترتب عليه توتر مكظوم يجد متنفسا في نوبات من الغضب تفسر على أنها سلوك عدواني .. ثم يكفر عن تمرده الوقتي ، بالخضوع والانقياد لها في كل شيء ، الا في أمر واحد يحتفظ به كموضع أخير يحمي به كرامته امام نفسه . وذلك هو العمل .. انه لا يريد أن يتعلم حرفة تجعله في المستقبل عاملا قليل القيمة اجتماعيا ، وعندما اكتشف ان أول معلم نجارة التحق

بورشته لم يكن متخصصا مؤهلا للتعليم والتدريب رفض العمل عنده . ثم ظهر كرهه للوضع الاجتماعى للعمال عموما فى صورة عدم استقرار فى أى ورشة أو حرفة تلحقه بها أمه !

وهكذا تم الكشف عن الاسباب الحقيقية لانحراف هذا الغلام الطيب الخجول .. ومنه يتضح ان كسله ليس كسلا حقيقيا ، فهو نشيط فى أعمال البيت ومنظم وكثير القراءة . ولو أمكن تعديل علاقته بأمه واخواته ، وأوجدنا له فى الوقت نفسه عملا يبشر بمستقبل اجتماعى محترم لأدى ذلك الى اختفاء أعراض انحرافه شيئا فشيئا .

وكانت الخطوة الاولى هى معالجة فشله فى تقمص شخصية الاب .. وهو ما كان يراه واجبا عليه كى يملأ المكان الشاغر بعد وفاة أبيه . فقررت أنا أن أشغل ذلك المكان الشاغر ، وأقوم بدور الاب لهذه الاسرة مدة من الزمن . وبذلك ألغينا أول ميدان من ميادين الصراع الناشب فى نفسه . وأمكننى ــ وأنا أقوم بدور الاب ــ أن أعمل على تحسين علاقته باخواته ، وان أجعل أمه تعدل من تطرفها وقسوتها نحوه .. لأن هذه الام كانت تجد فى الحديث معى متنفسا للشكوى واستجلاب العطف ، مما ساعد على تصريف طاقات سخطها ومرارتها

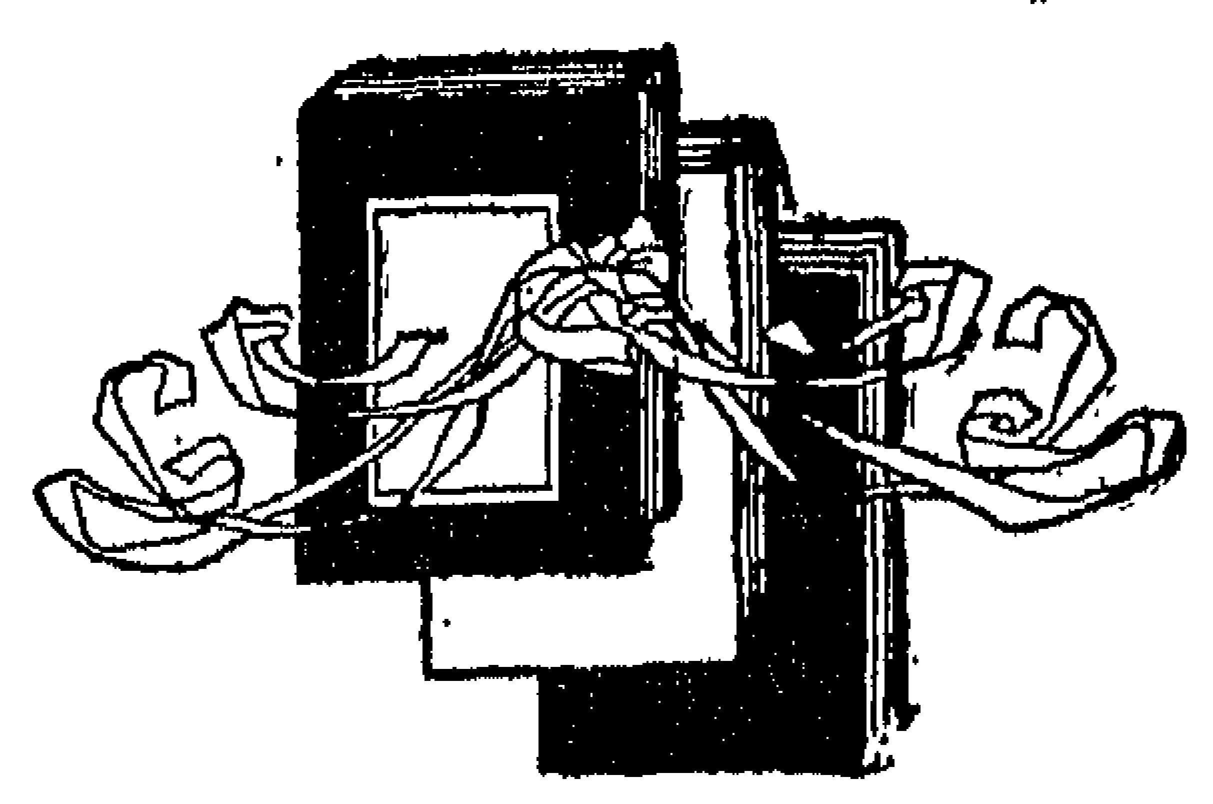
وبعد فترة وجيزة ، عثرت له على مكان لدى مصنع للاثاث متخصص لتدريب الصبيان على أعمال النجارة وتخريجهم رسميا . وسعيت فاحتسبت له مدة السنة التى قضاها فى الورشة الاولى مع أنها غير رسمية . وسرعان ما أقبل على العمل والتعلم بنفس راضية ، ولم يظهر عليه أى ميل للتراخى أو الهروب من العمل

وقضيت على المجال الاخير للصراع الفكرى والعقائدى،

عنده ، بأن استخدمت سلطتى على افراد الاسرة ، وأنا أقوم بدور الاب ، وأقضى سهراتى بينهم ، وأهتم بشئون الجميع .. فعرضت على بساط البحث بصراحة موضوع العقيدة الدينية ، وتمكنت من اقناع الام أن تترك لابنها الحرية التامة فى هذا الشأن .. فلم يعد يشترك معهن في الجمعيات الدينية ، ولا فى الزيارات الاجتماعية ، الا اذا كانت تلك الزيارات سبيلا لمقابلة فتاته

ومن الطريف أنه فى الفترة الاولى من العلاج ، كان ينتهز فرصة انفراده بى ليسب أخواته .. ولكن عندما يلتئم الشمل فى حجرة واحدة ، كان يقوم بدور الاخ الاكبر بكل نجاح ويتغاضى عن هفواتهن وهو ينظر الى من طرف خفى ، كأنه يشهدنى على صغر عقولهن !

وبعد أسابيع قليلة ، اعترفت الام نفسها بالتحسن الكبير . وساعد انضمامها لصفه فى مواقف كثيرة على تهدئة ثورته وتباعد نوبات غضبه .. ثم بدأت اكتفى بمقابلة الفتى على انفراد ثلاث مرات أسبوعيا مدى نصف سنة بعيدا عن جو المنزل . واخذت أشرح له بالتدريج الاسباب الحقيقية لحالته ، فكان ذلك أشبه بتحليل نفسى ساعده على فهم نفسه وتعديل ما كان باقيا من انحرافاته .. فلم تنقض الفترة حتى كان قد شفى تماما شفاء ثابتا لا نكسة فيه



أسباب أخرى للانحراف

والآن سأتحدث عن فتى آخر كانت مقابلة واحده كافية لحل مشكلته ، وذلك بفضل استعانتنا بثمرات التحليل النفسى

وهذا الفتى فى السابعة عشرة من عمره ، صبى نجار أخذ هذه الحرفة عن أبيه الذى يمتلك ورشة للنجارة . وفى البداية كان انحرافه يتمثل فى اختلاس مقدار من السبرتو الاحمر من الورشة وكمية من الخشب . وانزعج ابوه لهذا الانحراف ، وحاول اصلاحه بالوعيد . ولما لم يجد معه الوعيد لجأ الى العقوبة البدنية فصار يضربه . ولما لم يقلع عن انحرافه جاءنى به على أمل أن تصلح الاقامة فى المؤسسة الاصلاحية من حاله

واسترعى انتباهى قول ابيه ان الولد عندما كان يسرق السبرتو الاحمر ، كان يبول فى الزجاجات كى يخفى النقص . ولم يقنعنى السبب السطحى ، وهو القول بأن التبول كان وسيلته لاخفاء معالم السرقة لتشابه لون البول ولون الكحول غير النقى . وفكرت فى أسباب أخرى لذلك السلوك بالذات ، على ضوء التحليل النفسى .. وما لديه من تفسير لاستخدام الجهاز التناسلى فى اعمال عدوانية تبدو لاول وهلة بعيدة عن الجنس !

وعندما جىء بالفتى قابلته على انفراد كعادتى ..

ووجدته فارع القامة ، جش الصوت . وتركته بعد ذلك فترة غير قصيرة من غير ان ادعوه لمقابلة ثانية ، كي اتركه له فرصة التكيف بجو المؤسسة والاندماج فيها ..

وبعد نصف شهر ، جاءت سيدة جميلة صغيرة الجسم لايمكن ان تزيد سنها على خمسة وعشرين عاما للسؤال عن صاحبنا ذى السبعة عشر ربيعا .. فسبق الى ظنى انها اخته الكبرى . وكم كانت دهشتى عندما عرفت انها زوجة أبيه .. وعرفت من المشرف ان الفتى كان كثير الحديث عنها الى رفاقه ، وانه ارسل اليها فى هذه المدة لا أقل من خطابين !

ولا ندرى ماذا كتب اليها ، لاننا لا نتجسس على مراسلات نزلاء المؤسسة الاصلاحية . وانتهزت الفرصة فدعوت الشابة الجميلة للتحدث معى عن ابن زوجها الشاب ، فرحبت بذلك وتحدثت عنه بفهم ومودة رغم الوضع الذى يوحى بالتنافر بينهما كأى ابن وزوجة اب ..

وكان أول ما قالته لى أن الجيران يعتبرونها ــ بصفتها زوجة الاب ــ المسئولة عما نشب بين الابن وأبيه من عداء وسوء تفاهم ، مما أدى الى انحراف الفتى . وما أن صارحتنى السيدة الصغيرة بهذا ، حتى تأثرت وبكت وهى تقسم لى انها ليست كبقية زوجات الآباء ، وانها تعامله أرق معاملة ، بدليل أن الفتى نفسه متعلق بها جدا فى الوقت الذى ساءت فيه علاقته بأبيه ..

وعندئذ سألتها :

ــ ومن اين لك انه يحبك هكذا ؟

فارتبكت وقالت :

ــ آوه .. أخشى أن تسيء الظن بما سأقول ..

ـ اطلاقا .. بل سأصغى لك بكل انتباه ، بذهن خال من أى فكرة سابقة

ـ عندما نخرج معا ، كان يقول لى : « انظرى يا أماه كيف يتطلع الناس الينا » فأشعر انه مزهو بنموه المبكر وبلوغه مبلغ الرجال بحيث يظنه الغرباء صاحبا لى .. ووصلتنى منه وهو نزيل لديكم رسالتان . وفى كل منهما كان يلح على أن آتى لزيارته وأنا مرتدية الثوب البنى اللون الذى يحبه كثيرا ، كى يرآنى زملاؤه فى أحسن صورة !

ـ أهو هذا الثوب الذى اراه الان عليك ؟

ـ طبعا .. فما كنت لأرفض له طلبا يسيرا كهذا يدخل عليه السرور فى وحشته

ـ وكيف علاقته بابيه ؟

ـ حسنة .. وكذلك بالولد ، حتى انه كثيرا ما كان يقول لى : « لاتترددى ان كنت فى حاجة الى أى مبلغ صغير لنفقاتك الشخصية ان تخبرينى .. ففى استطاعتى أن أبيع جانبا مما فى الورشة من الاخشاب واعطيك ماتشائين ! » وكنت أظنه يمزح . وبالطبع لم أطلب منه نقودا ، ولم آخذ منه أى مبلغ .. وظللت مدة طويلة لا أعلم انه كان جادا فى كلامه ، وانه كان يختلس الخشب والسبيرتو فعلا الى أن عرفت ذلك منه . . وحاولت ان أصلحه بالنصح فلم يرتدع .. فوجدت من واجبى أن أطلع والده على الحقيقة ليتدارك الامر بنفسه

ـ وماذا فعل أبوه .. ؟

ـ نصحه .. ثم لجأ الى التهديد عندما تبين له ان النصح لم يثمر . ولما اعيته الحيلة صار يضربه ، ولكن

للفتى ازداد اعوجاجا . تأصلت العداوةبينه وبين أبيه ، وقد أحزننى هذا بصفة خاصة ..

ـ لمــاذا ؟

ـ كنت أشعر دائما ان الولد يحبنى .. حبا اكثر من الحب المعتاد بين أى فتىوزوجة أبيه . واردت ان استغل هذه المكانة فى التأثير عليه لمصلحته ولكنه لم ينتصح .. حتى صرت غير واثقة من أنه يحبنى فعلا

ـ ومنذ متى وانت متزوجة من أبيه .. ؟

ـ منذ ثلاث سنوات ·· وكنت صديقة لامه رحمها الله ، وكنت اكثر من زيارتها فى مرضها الاخير ...

ـ ومنذ متى وأنت صديقة لأمه ... ؟

ـ منذ أكثر من خمس سنوات ·· أى عندما كان الفتى فى الثانية عشرة من عمره . وكان منذ البــــداية يحبنى كثيرا ، مما سهل على قبول الزواج من والده

وهذه التواريخ المحددة تساعد كثيرا على تصــــــور ماحدث للفتى من صراع عنيف .. ففى فترة الاقـــــدام على المراهقة ، صارت هذه الشابة التى لاتجاوز العشرين صديقة لأمه تتردد كثيرا على المنزل . وفى ذروة المراهقة ـ وهو فى الرابعة عشرةـ وجد ذلك الفتى الفارهالجسم صاحبته الشابة التى يستظرفها عضوا فى أسرته ، ملازمة له بلا تكلف ولا احتشام . والفرق بينهما فى الســـــن لا يخرجها من دائرة رغباته الخفية .. فصارت موضـــوعا سريا لهذه الرغبة وهو لا يدرى . واستمر ميله نحوهــا عامين اكتمل فيهمــا بلوغه .. ولو أن أمه لم تمت لظلت صاحبتها الغريبة عن البيت موضوعا لهواه سرا بعض الوقت الي أن يتعلق بفتاة اقرب الى سنه . ولكن وفـــاة

الأم أعقبها زواج الاب من هذه الفتاة ، وهى لم تزل هدفا لهواه المراهق .. فى سن لا يستطيع الفتى فيها أن يتحكم فى رغباته اللاشعورية تمام التحكم .. وأدرك أن حبها صار محرما عليه ، فبدأ الصراع بين المانع الاجتماعى الشعورى والرغبة اللاشعورية

ومسئولية الاب هنا مضاعفة .. فالاب ليس هو الذى اختطف منه حبيبته فقط ، بل هو أيضا قد أتى بها الى عقر البيت ووضعها دائما أمام عينيه بحيث يتضاعف الاغراء .. وجعلها فى موضع أمه فصارت محرمة عليه تماما . وبذلك تسبب زواج أبيه منها فى مضاعفة الرغبة ، كما تسبب فى قطع الامل منها ! .. فهو اذن السبب المباشر فى عذابه المستمر وصراعه المستمر ..

وهذا هو سر حقده على أبيه .. وليس عجيبا بعد ذلك أن يلجأ اللاشعور الى الانتقام من ذلك الاب ، مستخدما الاداة التى استخدمها الوالد فى ايذاء الابن وهو لايدرى .. فصار يجد لذة خاصة فى التبول بالذات فى زجاجات الكحول التى يملكها أبوه وكأنها حرمة من حرماته .. !

***

وكان أيضا فى السابعة عشرة من عمره ، ذلك الفتى الذى أتى به أبوه العامل فى أحد المصانع كى أعالجه فى المؤسسة ، وكان الفتى صبى اسكاف .. ومن الوالد عرفت ان الفتى كان الى الصيف السابق مثلا يحتذى فى الاستقامة وحسن الخلق ولطف المعاشرة سواء فى الورشة أو فى الدار ...

وبلا سابق انذار حدث منه ما يأتى :

سأل اباه ان يعطيه مبلغا يشترى به خامات ليصنع

لنفسه حذاء رخيصا فى الورشة .. واعطاه أبوه المبلغ ، وفى ذلك اليوم لم يعد الى الدار ، وقضى ليلته فى الخارج وفى اليوم التالى ، علمت الاسرة انه لم يذهب كذلك الى الورشة . . فانزعجوا وظنوا أنه أصيب فى حادث من حوادث الطريق ، لانه لم يسبق له الاقدام على مثل تلك الفعلة من قبل . وأبلغوا الشرطة عن غيابه ، وطال البحث والقلق أسبوعا . وفى نهايته أبلغت الشرطة الاهل القلقين ان ابنهم موجود فى مدينة أخرى . وقد عثروا عليه خالى الوفاض من النقود تماما ، وأنهم سيرحلونه الى مسقط رأسه على نفقة الحكومة .. ففرحت الاسرة فرحا شديدا لانهم كانوا قد سلموا بوفاته ، واستقبلوه استقبالا صاخبا ...

ولكن فرحهم انطفأت جذوته تماما بعد قليل ، لان الفتى عاد واجما كاسف البال .. لايريد ان يتحدث الى أحد عن ظروف هذه الغيبة الغريبة . وكل ما اعترف به هو أنه كان فى مدينة « جراتس » . وهو أمر معروف من قبل لأن الشرطة عثرت عليه هناك ...

وبعد قليل انقطع الولد عن عمله ، وصار يقضى سحابة يومه فى الحدائق والطرقات متسكعا ، ولا يعود الى البيت الا فى ساعة متأخرة من الليل . ولم يكتف بهذا الاعوجاج بل صار يكثر من طلب النقود من أبيه . ولما قبض الأب يده عنه صار يذهب الى صاحب المصنع الذى يعمل به والده ، ويطلب منه مبالغ باسمه على الحساب !

ونفد صبر الوالد ، فصار يضربه ضربا موجعا عسى أن يرتدع . ولكن ذلك العلاج زاد حالته سوءا . وفى الوقت نفسه جنحت أمه الى العطف عليه ، وانحازت الى جانبه ، وراحت تطالب الأب بالعدول عن القسوة الى الرفق واللطف !

ورضخ الاب لرغبة الام .. وخيل اليهما ان سياسة اللين مجدية ، لان سلوكه تحسن .. بيد أن هذا التحسن لم يدم طويلا .. وعاد الى سيرته الاولى بعد قليل ، فنفضت الام يدها منه وعاد أبوه الى سياسة التشدد والقسوة . ولم تجد هذه السياسة ، فعاد الى اللين ، ثم الى القسوة ..

ولخص الوالد الموقف بقوله :

ـ لم أعد أدرى ماذا أصنع به .. لقد جربت اللين وجربت القسوة ، ولكن بلا جدوى . وصرت موقنا أنه لا حيلة لى فيه .. فلعل الاصلاحية تقوم اعوجاجه

وكان حديث الاب حتى ذلك الحين منصبا على أحوال ابنه ، وما عاناه من اعوجاجه ، وما تكبده فى سبيل تقويمه .. ولم يحدثنى عن نفسه وعن جو البيت والحوال الاسرة ومابين افرادها من علاقات .. وهى معلومات لابد منها لتفسير سلوك الفتى

وسألته عن تلك الامور ، فعرفت منه ما يأتى :

تتكون الاسرة من الاب ، وزوجته التى اقترن بها منذ ١٢ سنة ، وابن كبير يتأهب لدخول الجامعة ، وهذا الفتى ، وأخت صغيرة فى الخامسة من عمرها . وهذه البنت هى ثمرة الزواج الثانى .. والعلاقات بين الزوجين حسنة ، وأحوال الاسرة المادية طيبة

وسألته عن علاقة الولد بأخيه الاكبر الذى يتأهب لدخول الجامعة ، فأكد لى أنه لا يشعر بأى نقص من من جهته .. لانهما يتمتعان بمعاملة واحدة ومساواة فى كل شيء . ولكن الفتى منذ اعوج سيره ، صار مشاغبا ويكثر من مشاحنة أخيه الكبير بلا مبرر ..

وسألته عن علاقتهبأخته الصغيرة ، فأكد لى أنه لايغار منها لأنها أصغر منه بكثير .. وخصوصا لان الاب لايهتم بأمرها كثيرا ، فلا يدللها ولا يقصيها عن قلبه

وتحسر الرجل على حياة المحبة والصفاء والسهرات الجميلة فى البيت حيث الجميع يغنون ويمرحون ويسمرون ... وكيف صار لا يسمع الآن الا الشكوى المتكررة من سلوك ابنه المعوج

وعلمت كذلك أن الاب كان يريد أن يستمر ابنه الثانى فى التعليم ، ولكنه أصر على تعلم حرفة الاسكاف . وبدأ فيها من غير رضاه ، منتهزا رسوبه فى الصف الثانى الثانوى كى يرفض العودة الى المدرسة رفضا باتا لم تنفع معه توسلات الاب وزوجته والابن الاكبر فى ارجاعه عن تصميمه ...

ـ ولكن لماذا اختار هذه الصناعة بالذات ؟

ـ انها صناعة والد زوجتى الثانية ...

ـ وهل لابنك علاقة بفتيات ؟ .. ان هذا قد يلقى ضوءا على هرب الفتى فى البيت أول مرة ...

ـ أنا متأكد تماما من أنه لا علاقة له بالبنات ...

ووجدت أن الوقت قد حان لاستقصاء معلوماتى من الفتى مباشرة ، فقابلته على انفراد .. فاذا بى أمام فتى قصير نحيل يبدو على وجهه المهموم أنه أكبر من سن السابعة عشرة ، وثيابه نظيفة .. ودار بيننا الحوار التالى :

ـ صارحنى أبوك بما كان من أفعالك .. وأنا أريد أن أساعدك ...

ـ أوه ... لن يكون ذلك فى وسعك !

ـ طبيعى انك لاتثق بى كثيرا .. فنحن لا يعرف احدنا الآخر بعد ..

ـ ليس هذا هو السبب .. بل لأنه لا فائدة فى محاولة مساعدتى .. !

ـ هل ترفض أن تتحدث معى عن نفسك ؟

ـ وما المانع ؟ لنتحدث ! ..

ـ بشرط واحد اذن ..

ـ وما هو الشرط ؟

ـ ألا تجيب على اى سؤال لا ترتاح للاجابة عنه !

فظهرت عليه امارات الدهشة ، وقال بلهفة :

ـ ماذا تعنى ؟..

ـ أعنى أن تقول لى جوابا عن أى سؤال لا يعجبك : « ليس هذا شأنك » !

ـ ولماذا تشترط على هذا الشرط ؟..

ـ لأنى لا أريد أن اكرهك على الافضاء بأى شىء لا ترغب فى الافضاء به .. فأسرارك ملك خاص لك ، وانا لست محققا ولا مخبرا ولا جاسوسا .. ثم أنا أعلم أنك لن تكون صادقا تماما فى الاجابة عن أى سؤال لا يروق لك .. فما فائدة الاجابة اذن ؟

ـ وما أدراك انى سأكذب ؟

ـ هذا هو التصرف الطبيعى الذى نقدم عليه جميعا .. ولماذا تكون أنت مختلفا عن بقية الناس فى هذا الامر ؟

ـ وهل ستعرف انى أكذب اذا كذبت ؟

ـ ليس هـذا فى استطاعتى .. ولكنى أريد أن أثق بك ، وخصوصا ان الكذب لا لزوم له ما دمت قد صرحت لك بعدم الاجابة عما لا تحب من أسئلتى

ـ أوه .. كانوا فى البيت يقولون لى دائما : قل الحقيقة ولن نعاقبك .. وأقول الحقيقة فيؤذوننى اذى شديدا !

ـ ليست هذه طريقتى شخصيا .. فأنا أكتفى بما تريد أن تقوله لى عن طيب خاطر ، وأتوقع منك أن تلتزم الصدق فى الجانب الذى توافق على مصارحتى به ..

ـ ليكن لك ما تريد ..

ـ فلنتصافح اذن ابراما للاتفاق ..

فشد على يدى بحرارة توحى بالثقة ..

ـ والان .. فى أى صف كنت عندما غادرت المدرسة ؟

ـ فى الصف الثانى الثانوى ..

ـ ولماذا لم تستمر فى دراستك ؟..

ـ لانى رسبت فى ثلاث مواد .. فزهدت فى المدرسة

ـ وهل أقرك والدك على ذلك ؟

ـ كان يريد منى أن أعيد الصف ..

ـ ولماذا اخترت صناعة الاحذية ؟

ـ كانت هذه صناعة جدى لأبى ..

ـ لنترك هذا الان .. وخبرنى لماذا ذهبت الى مدينة « جراتس » ؟

ـ لا أدرى ..

ـ هناك سبب حتما لاختيارك « جراتس » بالذات !

ـ أنا حقيقة لا ادرى ..

ـ فكر قليلا .. فقد حدث ذلك منذ اقل من سنة ، فلا يعقل أن تكون قد نسيت فى هذه الفترة الوجيزة ..

ـ لعل السبب أن أخى ذهب فى رحلة مع رفاقه الى هناك قبل ذلك بمدة وجيزة فى يوم من أيام العطلة ..!

وسكت وظهر عليه التردد .. وبعد برهة سألته :

ـ الا تريد أن تزيدنى ايضاحا ؟

فنظر الى وجهى فجأة ، ثم أطرق برأسه وبكى بحرقة شديدة وقال :

ـ هل تعدني الا تخبر أبى ؟..

ـ أعدك بشرفى .. وهاك يدى ..

وشد على يدى بقوة ، وقال :

ـ كنت أفكر فى الانتحار ..

ـ متى ؟..

ـ فى الصيف الماضى ..

ـ قبل أن تأخذ من والدك النقود لشراء خامات للحذاء الجديد ؟

ـ نعم .. قبل ذلك ..

ـ وما السبب ؟..

ـ صحب أخى الكبير زوجة أبى لزيارة قريبة لنا .. وبقيت فى المنزل ، ولم أسافر معهما لانى مرتبط بالعمل فى الورشة . وذهبت خلال ذلك الى العمل بضعة أيام ، ثم انقطعت عنه ثلاثة أيام بغير علم أبى .. وركبنى الخوف

فى أن يبلغه نبأ غيابى حتى لقد فكرت فى الانتحار ..

ــ وهل شرعت فى الانتحار فعلا ؟

ــ كلا .. فقد عدلت عن ذلك الى التفكير فى الهرب من البلدة نهائيـــا . وطلبت من أبى ذلك المبلغ ورحلت ، ولكن المبلغ نفد بسرعة وأعادونى الى البيت .. .. ومن ذلك اليوم ساء موقفى وساءت معاملتى ..

ــ وما علاقتك بأخيك الكبير ؟

ــ لا بأس بها .. أو هكذا كانت ، الى ان صـــار ينحاز الى صف أبى فى الفترة الاخيرة ..

ــ الا يحز فى نفسك أن يتمم أخوك تعليمه فى الجامعة وتصير أنت صبى اسكاف ..؟

وامتنع عن الاجابة عن هذا السؤال ..

وانتقلت بسرعة الى أسئلة أخرى عرفت عن طريقهـا المعلومات التالية :

ماتت أمه وهو فى الرابعة من عمره .. ولم يلبث والده الا سنة واحـــدة ثم تزوج . وكانت زوجة أبيه شـــديدة الاعجاب بأبيها وهو اسكاف . والفتى شخصيا يشاركها فى هذا الاعجاب به ، لانه ــ على حـــد قوله ــ رجل رزين جدا ولطيف للغاية .. وأما علاقته بأبيه فظلت طيبة جدا الى الصيـف المـــاضى

ولمـــا سألته عن رأيه فى أبيه ، صرح لى بأنه على الرغم مما بينهما من سوء تفاهم فى الوقت الحاضر الا أنه رجل طيب ، محب لأسرته ، يقضى ســـهراته فى البيت .. ولا يتردد على الحانات الا فى أوقات قليلة جـــدا ، وهو قائم بمطالب الاسرة .. فلا يشعر أفرادها بضائقة أو نقص

ولما سألته عن الدافع له على طلب المال من أبيه بحجة شراء خامات للحذاء الجديد ، برر ذلك بأن أباه أعطى أخاه مبلغا مساويا لهذا المبلغ من قبل كى يذهب مع اخوانه فى رحلة الى « جراتس » فشعر ان من حقه ان يأخذ ذلك المبلغ .. ولكنه شعر أيضا أنه لو صارح أباه بذلك لرفض أن يعطيه تلك النقود ، فلجأ الى الكذب مضطرا ...

والعجيب أنه أعتبر والده مسئولا عن سوء مستقبله واتخاذه صناعة الاسكاف حرفة .. رغم أن هذه كانت ارادته شخصيا ، وعلى غير مراد أبيه .. وكان منطقه كما يأتى :

ـ أن الوالد أدرى بمصلحة الابن .. فسن الرابعة عشر لا تسمح له عقليته بحسن الاختيار فى أمر خطير كهذا .. فكان واجبه أن يرغمنى على اعادة السنة الدراسية ارغاما ، ولو فعل لكنت الان تلميذا محترما سائرا فى طريق قويم !

واستأذنته فى أن أقوم بتوضيح كل شيء لأبيه .. فبدا عليه التردد وقال :

ـ لا فائدة من التفاهم معه .. لقد حاولت ذلك أكثر من مرة بلا جدوى

ـ ولكنى واثق أنه لم يكن يعرف كل الحقائق ، وواثق أنه سيحسن فهمك اذا أنا شرحت له كل شيء .. بشرط ان تحلنى من وعدى لك بكتمان ما افضيت الى به ، وانا سأضمن لك تصفية الموقف على ما تحب

ووافق بعد تردد قصير ، فصرفته على أن يرسل أباه من حجرة الانتظار ويبقى هو هناك ..

واستلزم الامر منى وقتا طويلا كى أدخل فى ذهن الوالد أنه أنجب ابنه وعاش معه هذه السنوات من غير أن يعرفه على حقيقته .. وكان يهز رأسه أو يحملق بعينيه فى دهشة بالغة ، وأنا أفسر له سلوك ابنه .. ثم انتهى به الامر الى البكاء تأثرا لما حدث لابنه . فأدركت أن هذه هى اللحظة المثلى للتقريب بين الاب والابن ، فناديت الابن وتركتهما معا بعض الوقت

ولما عدت بعد ثلث ساعة ، وجدتهما واجمين تماما .. وقال الاب فى أسف :

ــ انه مصر على الصمت ..

وشعرت بغيظ شديد من هذا الاب الذى قضيت ساعتين فى تفهيمه حالة ابنه ، واذا به بعد أن بكى تأثرا لا يعرف كيف يشعر ابنه بأن قلبه صار مفتوحا له .. ولذلك تحولت عن الاب ، ووضعت يدى على كتف الفتى وقلت :

ــ لا تبتئس يا بنى .. وليس من المهم أن تقول شيئا، ففى الامكان أن يتفاهم الشخصان المتحابان من غير أن يتبادلا كلمة واحدة ..

وكأنما كانت هذه الكلمة عصا سحرية ، فسرعان ما ارتمى كل منهما فى أحضان الاخر وهو يبكى .. !

وبعد أن هدأت عواطفهما الثائرة ، وجدت من واجبى أن أخلو بالأب لأقول له شيئا على انفراد ، فأرسلت الفتى كى يشترى لى سجائر .. وقلت للأب :

ــ ربما عاد ابنك الى الانحراف ، فلا تجزع .. وعد فى الحال الى لتأخذ رأيى فيما تصنع . أما الان فاذهب به توا الى صاحب الورشة كى يستأنف عمله .. وعاملوه

من الان كأن شيئا لم يبدر منه ..

ولم يطل انتظارى .. ففى الصباح الباكر من اليوم التالى وجدت الاب على باب عيادتى ، وقد استبد به اليأس من تقويم هذا الولد المعوج .. وبهدوء سألته ما الذى حدث بعد انصرافهما ، فقال :

ـ خرجنا فى خير حال .. وفى الطريق انتهزت فرصة الصفاء ، ورحت ألقى عليه عظة حسنة تنفعه . وقلت له ان ينتهز رضاى عنه فلا يعود الى أغضابى بمثل ما كان يقترفه . وذهبت به الى صاحب الورشة ، ولكنه لم يقض بعد الظهر هناك كما هو مفروض ، بل تسكع كسابق عهده بين المقاهى والحدائق الى نصف الليل !

وأدركت أن الوالد بموعظته أحرج الفتى وتحداه فانتكس ، وأيقنت أن هذا الرجل لن يكون عونا لى على علاج ابنه .. وطلبت منه أن يرسل ابنه الى فى المساء وحده ..

وجاءنى وعلى وجهه البراءة .. وسألته عن أحواله ، فزعم أنها على ما يرام .. وكتم عنى ما فعله ، ولما سألته عن أبيه قال :

ـ انك تحسن به الظن أكثر مما يستحق .. فقد ظل يعظنى فى طريق العودة ، ويملى على شروطه كى يصفح عنى ويحبنى ..

وهذه هى غلطة ذلك الوالد فعلا .. لأنه لم يظهر لابنه بمظهر الرجل العطوف الذى يمنحه حبه بلا قيد ولا شرط لانه فهم مشكلاته ..

وتركت هذا الموضوع كأنه ليس مهما ، ورحت أتحدث معه فى أشياء أخرى عامة .. ولما جرنا الحديث عفوا

الى الموسيقى ، قال ان والده يعزف الكمان ، وأن جميع أفراد الاسرة يعزفون على آلات موسيقية شتى ، وأنه يعزف الناى

وعند منزلى الذى قطعنا الطريق اليه فى هذا الحديث ، سألنى من تلقاء نفسه :

ـ لقد سعدت بهذا السير معك .. فمتى نتقابل ؟

فضربت له موعدا بعد ثلاثة أيام .. ولكنه قال :

ـ هذا بعيد جدا ..

ـ ليكن غدا اذن .. فى مثل موعد الليلة ..

ـ شكرا .. أبلغ تحياتى واحترامى الى زوجتك يا سيدى ..

ولم أكن ذكرت له زوجتى اطلاقا .. وليس المفروض انه يعرف ان كنت متزوجا أم لا ، فكأنه افترض أن مسألة زواجى قضية مسلمة

ووقفت أمام عتبة دارى أرقبه وهو منصرف .. فرأيته بعد بضعة أمتار يقف ويستدير الى ويلوح بيده ويرفع قبعته ، فقابلت تحياته بمثلها .. وبعد خطوات أخرى تكرر منه ذلك ..

وفى الليلة التالية ، اقترح أن نمشى من طريق طويلة كى نقطع وقتا أكبر فى السمر . ودام السير ساعة .. ودعانى أن أزوره فى البيت كى أحضر احدى السهرات الموسيقية مع الاسرة ، فقلت له اننى ناقد موسيقى مر ، وانه يجب أن يعد برنامجا جديرا بالاعتبار ..

وكان هدفى من هذا الكلام أن أوجه عنايته نتيجة لاهتمامه برضاى الى ميدان يهذب عواطفه ، ويساعد على تقويمه وبقائه فى المنزل وتعاونه مع بقية أفراد الفرقة

الموسيقية التى ستقدم البرنامج

وظللت اضرب له موعداً لمقابلتي كي يصحبني في طريقي الى البيت مساء بعد مساء ، ثلاث ليال في الاسبوع . وغرضي من ذلك أن أنمى علاقته العاطفية بى ، بصورة غير مباشرة من غير أن أعبر عن تلك العاطفة بالالفاظ

وأردت أن أختبر مدى تعلقه بى ، فضربت له ذات مرة موعداً تخلفت عنه ساعتين .. فلما حضرت وجدته قد انصرف ، وعلمت من الساقى فى المقهى انه انتظرنى اكثر من ساعة ونصف ولم يظهر السخط عند انصرافه .. بل ترك لى رسالة مع الساقى يسألنى عن زمان ومكان لقائنا القادم

وقابلته فى اليوم التالى ، وشكرته على طول انتظاره.. فأبدى تسامحا كبيرا ، وقال انه يدرك ازدحام وقتى بالمشاغل والاعمال . وتحدثنا فى تلك الليلة عن الترقية التى حصل عليها فى عمله نتيجة لاجتهاده وقد ظهر عليه الزهو . وعرج فى الحديث عن موضوع السهرة الموسيقية، واثنى على أخيه الاكبر لتعاونه معه باخلاص على انجاح ذلك البرنامج . ورأيت فى ذلك تلميحا كافيا ، فحددت له موعداً للزيارة بعد اسبوعين .. فكاد يطير سروراً بهذا الموعد ، ثم لزم الصمت فجأة وظهر عليه الشرود فسألته عما يشغله فقال :

ــ فكرة سخيفة .. فقد خطر لى أن أبى لو أنه كان يعاملنى كما تعاملنى أنت لما أقدمت على شىء يغضبه !

وفى ليلة الزيارة ، وجدت جميع أفراد الاسرة فى انتظارى . وكان الفتى أكثرهم اهتماما .. فأردت أن أختصر عذاب القلق الذى يعانيه ، وطلبت أن يبدأ العزف فورا . والحقيقة أن الاداء الموسيقى كان أفضل مما كنت

انتظر ، وقد أعربت عن سروری بأجلی صورة .. ولكنی لم أخصه شخصيا بالثنــاء حتی لا يبــدو أننی أرمی الی مكافأته أو التقرب اليه . وبعد العزف جلسنا الی المائدة، وتحدثنــا فی أحوال الاب وعمله ، ومتــاعب ربة البيت ، ولكنی لم اتعرض من قريب او بعيد الی سلوك الفتی سواء فی المــاضی أو الحاضر .. مع أن الســمر زاد علی ثلاث ساعات

وبعد ذلك باعدت بين مواعيــدی مع الفتی .. وكنت أتسقط أخباره من أبيه فتزيدنی اطمئنانا ، الی أن حلت أجازتی السنوية فسافرت ، وجعلت أراسله ،ثم باعدت بين الخطابات . ولمــا رجعت من الاجازة ، لم أكن أقابله الا صدفة .. أو عندما يزورنی فی المناسبات ، وأصــبح واضحا أنه شفی ..

وحالة هذا الفتی ــ هی بلا شك ــ حالةسلوك انتقامی موجه ضد الاب ، فهو يشعر بالنقص بازاء شقيقه الاكبر الذی يتم تعليمه . ولكن الغامض فی الامر هو سر سخطه علی أبيه ، بعد أن بلغ السابعة عشرة ، لعمل حدث وهو فی الرابعة عشرة .. ومع أن هذا العمل كان برغبة الفتی ورغم ارادة أبيه !

والجواب أن اتجاه الفتی فی سن الرابعة عشرة لصناعة الاحذية ، لابد أنه كان نتيجة لرغبة خفية أقوی لديه فی ذلك الحين من الرغبة فی اتمام الدراسة .. ولابد أن هذه الرغبة الخفية زالت بعد ثلاث ســنوات ، فرجحت كفة الرغبة فی اتمام الدراسة ، وحدث الندم علی فوات تلك الفرصة والسخط علی من ســاعد علی فواتهــا ولو من بعيد

وهذا التطور فی المراحل النفسيةشیء طبيعی .. فابن

السادسة عشرة لا يكون فى نفس الموقف السيكولوجى الذى كان فيه ابن الرابعة عشرة

وسنجد مفتاح اللغز فى عبارة جاءت على لسان الفتى عرضا ، وهو يودعنى عند باب دارى فى أول ليلة قطعنا فيها الطريق الى منزلى معا :

ـ بلغ تحياتى الى زوجتك ..

فهذه العبارة ليست من باب المجاملة المفروغ منها ، لانه لا يعرف زوجتى .. بل ولم يكن يعرف عندئذ أن لى زوجة اطلاقا ، الا أنه كان يعتبر زواجى أمرا مسلما به . وتعليل ذلك انه كان يضعنى نفسانيا موضع البديل من ابيه ويسقط على كل الخصائص المفروضة فى ابيه أو التى يتمناها فيه . ويتمم ذلك ما قاله لى فيما بعد من انه كان يتمنى لو أن أباه عامله مثلما أعامله .. !

وعلى ضوء هذا الموقف ، ندرك أن تحيته لزوجتى كانت فى الواقع تحية موجهة منه الى أمه . ولما كان هذا السلوك قد صدر بغير مثير خارجى خاص ، فهو اذن نابع من اللاشعور .. ويحمل فى هذه الحالة شحنة وجدانية قوية ، مما يوحى بأنه شديد التعلق بأمه ، وأن ارتباطه بها كان ارتباطا ينطوى على « التثبيت » فى المرحلة « الاوديبية » .. ومما يساعد على هذا الظن أنه خجول قلق فيه مسحة أنوثة

ونحن نعلم أن أمه ماتت وهو صغير ، وأن زوجة أبيه حلت محلها بسرعة . ومن المعتاد فى هذه الحالة ، أن ينتقل التعلق المحرم بالام الى بديلتها وهى زوجة الاب . وقد علمنا أن علاقته بزوجة أبيه كانت طيبة ، وأنها كانت تنحاز الى صفه فى كثير من الاحيان ، وتطالب أباه أن يترفق به ..

فاذا أضفنا الى ذلك أن الفتى فى تلك السن ، لم تكن له أية علاقات غرامية خارج الاسرة ، أدركنا أن هذه علامة اخرى على تأخر تحول العواطف من داخل الاسرة الى خارجها .. وهى من العلاقات «الاوديبية» القوية

ومن العلاقات «الاوديبية» أيضا ، أن يكون احساس الابن دائما نحو أبيه هو احساسه بمنافس لاشعورى فى حب أمه . ولكن هذا الاحساس بالكراهية يكبت فى اللاشعور لان العرف والاخلاق تحرمانه .. وبذلك نفهم أن اصرار الفتى على هجر المدرسة ، انما كان نكاية فى أبيه بدافع من عدائه اللاشعورى المكبوت نحوه .. فهو يعلم أن والده ـ وهو رئيس ادارة فى الحكومة ـ سوف يؤلمه ويجرح كبرياءه أن يصبح ابنه صبى اسكاف !

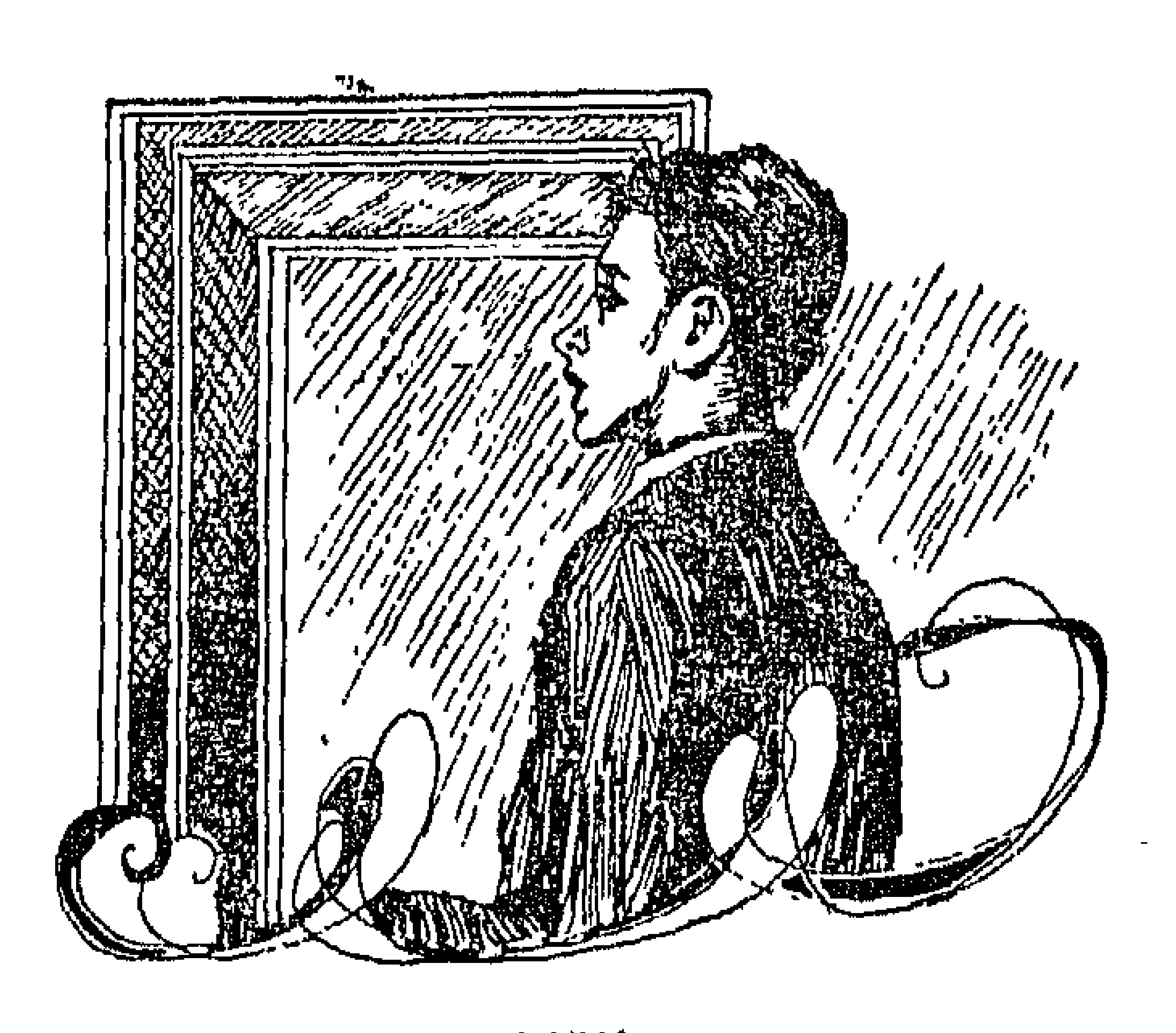
وهو اذ تخير هذه الصناعة ، أصاب عصفورين بحجر واحد : فهو من جهة قد بالغ فى ايذاء شعور أبيه بهذا الاختيار . ومن جهة اخرى اختار حرفة والد زوجة أبيه .. ونحن نعلم أن زوجة أبيه كانت شديدة الاعجاب والتعلق بأبيها ، وأنه كان يعجب به أيضا .. فهو اذ يختار حرفة أبيها سيربح تقديرها له ، لان هذه الحرفة ستضعه فى مثل موضع أبيها لا فى مثل موضع أبيه هو ؟

وبعد أن أرضى فى نفسه هذه الرغبة ، بدأ يعانى من الواقع يوميا .. وهو واقع مرير بالنسبة لابن أسرة من الطبقة الوسطى ، لا شك أن اشتغاله صبى أسكاف ينطوى على هبوط شديد وايذاء لاحترام الذات .. فشعر فى سن السادسة عشرة أن كرامته هو قد جرحت اكثر من كرامة أبيه . وبدأت الرغبة فى الانتقام من والده تبحث عن أسلوب جديد يسىء الى الاب ويرفع مهانة العمل الحقير عن الابن !

يضاف الى ذلك أن تضحيته اللاشعورية باختيار حرفة والد زوجة ابيه ـ تقربا اليها ـ ثبت انها ذهبت هدرا ، لان هذه السيده اصطحبت أخاه من دونه عند سفرها لزيارة قريبتهم !

ولكن هذا النمو فى مدى السنتين أو الثلاث قد ساعد على تحرر الفتى من الرغبة المحرمة الخفية فى اللاشعور ، بازاء بديلة أمه ، وهذا هو ما ساعدنا على التقريب بينه وبين أبيه .. فلو أن المرحلة « الاوديبية » ظلت مسيطرة على الفتى لكان من المحتوم ان تظل كراهيته لابيه مسيطرة على لاشعوره !

ان الصراع الذى كان فى نفس الفتى ، وهو ينتقل من المرحلة « الاوديبية » الى ما بعدها ، أشعره أن مستقبله ضاع .. فخطر له أن ينتحر ويضع حدا لحياته . ومن المعروف فى التحليل النفسى أن الهروب من المنزل هو سلوك رمزى للانتحار ، ولا سيما عند أصحاب الميول النرجسية .. أى الذين يتجه حبهم الى ذواتهم بدلا من الاتجاه الى أشخاص الاخرين



الفصل الثالث

دور العلاج النفسى فى حياة المريض



التحويل

يتيح العلاج بالتحليل النفسى للمعالج المحلل ، أن يقوم بدور هام فى حياة مريضة الوجدانية .. ولهـذا الدور أهمية أساسية فى عملية التحليل نفسهـا ، لان المريض يشعر أثناء العلاج اما بحب شديد أو نفور شديد نحـو المحلل . وقد استرعت هذه الحقيقة اهتمام رواد التحليل النفسي الاوائل ، حتى ان « فرويد » نفسه درسها دراسة عميقة وأطلق عليها لفظ التحويل . وسـأحاول أن أبين الاسباب التي حملت « فرويد » على اختيار هذا اللفظ الاصطلاحى لتلك العملية الوجدانية ..

وهناك نوع من التحويل ـ مضاد للنوع السابق ـ هو التحويل العكسى .. ونعنى به أن يشعر المدرس أو المعالج أو المرشد نحو من تحت اشرافه ، أو ولايته ، أو نحـو مريضه ، بعلاقة وجـدانية غـير عادية أما بالارتباط أو النفور

وأساس التحويل هو وجود علاقة قديمة بين المريض أو الطفل أو الناشىء المراهق أو الشاب بشخص آخر .. بحيث يحل المرشد أو المعلم محـل الشخص الذى كان موضوعا لتلك العلاقة القديمة

ومن المعلوم أن الطفل يتخذ من والديه موضـوعات لحبه .. ونعرف أيضا أن هناك مرحلة « أوديبية » تنحل

مع النمو الطبيعى ، ثم يتقمص الطفل شخصية أبيـه . وقبيل البلوغ لابد أن يتحول الطفل بطاقته الحيوية من داخل الاسرة الى خارجها .. وتذكر هذه الاطوار ضرورى لفهم عملية التحويل

وليس من العسير أن نعرف ما حمل « فرويد » على اختيار اصطلاح التحويل علما على العلاقة العاطفية بين المريض والمحلل . ولابد لكل من يشتغل بالتربية والارشاد للاطفال والشباب ، أن يعرف أسرار عملية التحويل معرفة تامة .. فالطفل المنحرف يستقيم حاله اذا عرفنا كيف نوقفه فى موقف التحويل ، ونستغل عاطفته الجديدة نحونا بتقويم سبيله

وقد أثبتت التجارب أن الانحراف عند الشاب ، يرجع الى ما أصاب حياته الوجدانية من اضطراب فى مرحـلة الطفولة المبكرة .. اما لافراط فى المحبة أو لتفريط فيها .. فالتـدليل المفرط كالجـفوة المفرطـة يؤديان الى الانحراف . .

وخير ما يساعد على تنشئة الشاب تنشئة سوية نافعة اجتماعية ، أن يتزود من طفولتـه الاولى فى البيت زادا وجدانيا ينفعه فى المدرسة .. وأن يتزود من المدرسة زادا وجدانيا وعقليا ينفعه فى معترك الحياة . .

وسبيل ذلك أن تتكون لديه منذ الصغر عواطف نحو أبيه تصلح أساسا لحلول معلميه محل الاب حين يذهب الى المدرسة ، وأن يتكون من علاقته بأخـوته واخواته أساس عاطفى ينفعه حين يحل زملاؤه فى المدرسة محـل اخوته واخواته .. وكل علاقة جديدة تعتبـر اعادة فى ثوب جديد لعلاقة سابقة مع تحوير ضئيل ..

ونلاحظ أن من تكيفوا فى بداية حياتهم تكيفا طبيعيا بالوسط الذى يعيشون فيه لاتصادفهم فيما بعد صعوبات كبيرة فى علاقاتهم العاطفية بالآخرين . ولذلك نجدهم ينشئون العلاقات الجديدة ، أو يتخلصون من العلاقات القديمة ، من غير أن يعانوا بسبب ذلك صراعا لافائدة منه

ولعل هذا يفسر لنا سر المقاومة التى يقابل بها دواما كل مصلح يحاول تغيير النظم الاجتماعية القديمة . . فموقفنا نحو النظام الاجتماعى يستمد قوته من تركيب الاسرة ، ومن تمكن أعضائها من قلوبنا . . ونظام الدولة أو النظام الاجتماعى الراسخ له من المكانة الوجدانية عند لانسان بقدر ما لاسرته ـ وهو طفل ـ من مكانة واعتبار

فى وجدانه . وهذه مسألة يجب أن يحسب المصلحون حسابها ، وأن يعرفوا أن النضج النفسى السليم يحول الشاب من التعلق العاطفى بأسرته الاولى الى تعلق عاطفى بالمجتمع الخارجى . ومتى سهل عليه التحرر من عواطف الطفولة ، فسيسهل عليه أن ينظر الى المسائل الاجتماعية بقسط وافر من الموضوعية والتعقل

واذا أصيب الطفل باضطراب فى عواطفه ، نتيجة حرمان عاطفى واضح أو حنان مفرط ، فان تطوره يكون ناقصا وتكيفه يكون ضعيفا فلا يقوى على مواجهة مصاعب الحياة ومشكلاتها . . لانه سيعجز عن تكوين علاقات المحبة الطبيعية التى هى لباب جميع العلاقات الاجتماعية . .

وهذا العجز خليق أن يجعله فريسة للشعور بعدم الطمانينة الى الناس . . وهذه هى بداية الطريق الى الانحراف ، فليس الانحراف الاسلوكا اجتماعيا هو المظهر الخارجى لعدم التكيف بالمجتمع . . أى عدم سير

التطور الوجدانى للشاب فى الطريق الذى يفترضه المجتمع ويتطلبه من أعضائه

وسأذكر فيما يلى توضيحا عمليا لاستغلال التحويل فى علاج الانحراف ..

هاهو ذا شاب يدخل حجرة مكتبى .. فأدرك لاول وهلة انه مشاكس عنيد ، فلو أننى اتخذت منه موقف الجفاء لنفر منى نفورا تاما ، وامتنع حدوث أى تحويل لديه - فيما بعد - بالنسبة لى ..

وفى الوقت نفسه ، لو أننى تهالكت على طلب وده وصداقته لكان ذلك سببا فى اثارة ارتيابه وتوجسه مما يزيد الهوة بينى وبينه .. أو قد يعتبر توددى اليه ضعفا يغريه بالامعان فى سوء الادب !

فالمشكلة الاولى هى كيف نتخذ موقفا ملائما من مثل هذا الفتى ..

انى افضل دائما أن ابدأ بالقاء طعم على سبيل جس النبض .. كأن أقول بلهجة ودية شبيهة وانا أمد يدى للمصافحة :

- أهلا بك .. ليس عندنا مايدعو لتوجسك ، ومؤسستنا ليست مركزا للشرطة ولا محكمة للأحداث ..

وربما ألقيت دعابة تمهد الجو وتزيل التهيب .. وعلى أساس رد الفعل الذى يحدث من الشاب أقدر خطواتى التالية ..

وهكذا يتضح أن شروعى فى عملية التحويل يختلف بحسب كل حالة .. ويتوقف على الاثر الذى يحدثه الشاب فى نفسى عند دخوله مكتبى لاول مرة . فلهذه

الوهلة الاولى أهميتها الاساسية .. وهذا مايوجب أن نجعلها مشحونة بدواعى الثقة والطمأنينة ، وأن نخليها من التردد والارتباك

وينبغى ألا يفوتنا أن الفتى عندما يأتى لهذه المقابلة الاولى يكون لديه مثل مالدى من التطلع .. فهو متلهف على معرفة كنه هذا الشخص الجديد ، ولا يقلل من هذا الفضول انه مشغول بمشكلته الخاصة أو صراعه الوجدانى

وليس أصعب هؤلاء الشبان قيادة هو الشاب الذى يواجهنا من البداية بالتحدى السافر ، بل أصعب منه قيادا ذلك الفتى الذى يظهر استسلاما تاما ، مقرونا بالتهذيب الزائد عن الحد .. فذلك السلوك ــ فى الغالب ــ خدعة لو أننى اغتررت بها لاعتقد الفتى انه غرر بى وسلبنى زمام الموقف ! ..

فالفترة الاولى من أول مقابلة هى ــ فى الواقع ــ معركة بينى وبين الشاب المنحرف حول السيطرة وفرض الارادة .. وقد تطول هذه المعركة وقد تقصر ، ولكنى أبادر فأعترف ان النصر لم يكن يلازمنى مائة فى المائة فى جميع الاحوال

ومما يزيد فى صعوبة موقفى بالنسبة للشاب المنحرف، أن رغبتى فى السيطرة عليه ليست تجربة جديدة ــ بالنسبة اليه ــ كل الجدة . فقد جرب مثل ذلك الصراع على السيطرة من قبل مع أبيه ، ومع أمه ، ومع معلميه.. فأنا فى الغالب أمثل فى وجدانه منذ البداية دور الاب ، مع كل مايتصل بدور الاب عنده من علاقات متعارضة أو معقدة !

وهذا هو الذى يجعلنى أعامله فى أقرب فرصة معاملة

مختلفة عن معاملة الاب .. فاذا كان لديه ما يتأذى منه بالنسبة لابيه ، فسوف لايشعر بمثل هذا التأذى بالنسبة لى ..

ومن أهم دلائل اختلاف مسلكى عن مسلك الاب ، حرصى على أن أوضح له انى لا أؤاخذه بما فعل ، ولا ألومه عليه ، ولا أجبره على الاعتراف بأشياء يريد أن يحتفظ بسريتها .. وأبادر الى هذا الاعلان اذا وجدت من الفتى ميلا الى استدراجى لاستجوابه ، فهذا الاستدراج يراد منه أن تسنح الفرصة لمجابهتى بمقاومته كأنه يتحدى ارادتى ..

واجتهد دائما أن أجعل هذا الاعلان فى صورة طبيعية :

ـ من حقك أن تمتنع عن الجواب على أى سؤال لايروق لك .. وأنا مقتنع أن كل شخص لا يستريح الى افشاء أسراره لانسان يقابله للمرة الاولى .. وانا شخصيا أفعل ذلك

وفى هذه الحالة ، يظهر الفتى استعدادا للتحدث معى فى مسائل بعيدة عن مشكلته الاساسية .. كأنه يمتحن فضولى واخلاصى لمبدئى ، وهو يجهل أن حديثه عن شئونه الاخرى يفيدنى فى معرفة طباعه وميوله عموما ..

ان السياسة التى أتبعها هى أن أقف موقفا سلبيا ، كلما وجدت الشاب ينتظر منى أن أهاجمه ويتأهب لمقاومتى .. فيجد نفسه أمام سلبيتى ، وقد أسقط فى يده لا يدرى أى موقف يتخذ منى ، ويشعر اننى لست خطرا عليه ، واننى قد أغدو حليفا معقولا ..

وينبغى أن أنبه القارىء الى اننى لا أستخدم معه فى تلك المرحلة كلمة « صديق » بل كلمة « حليف » ، لان

أمثاله من المنحرفين لايشعرون أن لهم أصـــدقاء . . فانحرافهم نفسه انما هو مظهر لعـــدم اطمئنانهم الى الآخرين وثقتهم بهم ، وانما هو صاحب مصلحة يتحالف مع أناس لتحقيق بعض رغباته .. وفى حدود تحقيق تلك الرغبات . ومن عدا هؤلاء من الحلفاء فهم مندرجـون تحت عنوان الاعداء !

وبعد هذه المرحلة الاولى من « تخدير » الريبة فى نفس الشاب ، اتحدث معه حديثا طبيعيا فى أمور عامة تهم جميع من فى سنه ولا صلة لها بمشكلته الاساسية ..

ولما كان معظم فتيان هذه الايام مغرمين بكرة القدم مثلا .. فلابد لى من معرفة أسماء الفرق الرياضية المشهورة واللاعبين البارزين وأرقام المباريات الاخـيرة والاهداف التى حصل عليها كل فريق ..

ومن المعلومات الضرورية أيضا أسماء نجوم السينما المشهورين وأهم ادوارهم .. ولا سيما من يقومون بأدوار الفروسية والمغامرات والفكاهة

وبالنسبة للفتيات ، يجب أن أكون ملما بآخر تطورات الموضة .. وقد تكون ملاحظة عابرة عن ثيـاب الفتاة أو طريقة تصفيف شعرها بداية طيبة لحـديث ودى يزيل بقية الحواجز بينى وبينها !

أما بالنسـبة للاطفال الصغار ، فخير موضـــوع هو مايتصل بأنواع الحلوى .. لان لذات الفم لم تزل عندهم هى المسيطرة !

وقد يكون العمل فى هذه المرحلة سهلا جدا يفتح لى الطريق مباشرة الى قلب الفتى أو الفتـــاة .. ولكنه فى

بعض الاحيان يتكشف عن صعوبات غير متوقعة ، وعندئذ يجب أن أتذرع بالصمت حتى لايكون فضولى عقبة جديدة فى طريقى ..

والمرحلة التى تتلو ذلك هى تجميع المعلومات بطريقة لبقة عن شعور الفتى نحو أفراد أسرته وأعضاء بيئته المباشرة عموما . وقد لاحظت أن المراهقين وما فوقهم يجيبون عن هذه الاسئلة بصراحة فى أحيان كثيرة .. أما الاطفال الصغار ، فيرفضون الاجابة أو تكون اجاباتهم غير شافية . وهذا يضطرنا الى الكشف عن عواطفهم فى هذا المجال بحيل ملتوية .. كأن نحدثهم عن الالعاب التى يلعبونها ، فنعرف من الذين يشاركونهم فيها ، ومن الذين يكره الطفل مشاركتهم فى ألعابه ..

وسأذكر محاورة من ذلك النوع .. وزائرتى فى هذه المرة طفلة فى العاشرة .. سألتها :

ـ هل تحبين القراءة ؟

ـ نعم .. كثيرا ..

ـ اى نوع من الكتب تفضلين قراءته ؟

ـ القصص الخرافية ..

ـ وما أحب تلك القصص اليك ؟

ـ بائعة التفاح ..

ـ وما أحب مواقف هذه القصة اليك ؟

ـ حين باعت الساحرة للفتاة الصغيرة تفاحامسموما

ـ وهل فى هذا الكتاب صور ؟

ـ نعم ..

ـ وهل فيه صورة للساحرة ؟

ـ نعم ..

ـ صفى لى الساحرة .. لا كما تبدو فى الصورة بالضبط ، بل كما تتخيلينها ..

فأخذت الفتاة تصفها لى وصفا مفصلا من حيث قامتها ولون شعرها وملامحها وثيابها .. وعندئذ سألتها :

ـ من أين استقيت هذه التفصيلات ؟

ـ هذا سهل .. القامة قامة فلانة .. والشعر شعر فلانة أخرى .. والملامح ملامح فلانة ثالثة .. والثياب ثياب فلانة رابعة ..

وكان بديهيا أن هؤلاء الاربعة أشخاص مكروهون لديها ..

وليس من الضرورى أن يكون طريقنا الى معرفة حقيقة مشاعر الفتى او الفتاة بمثل هذه السهولة .. فهناك فتاة أخرى سنها ١٢ عاما .. جلست أمامى جامدةالملامح لا يبدو عليها اى انفعال .. وسألتها :

ـ ما احب الالوان اليك ؟

ـ الاحمر ..

ـ ما الذى يقترن فى ذهنك باللون الاحمر ؟

ـ قاطرة العربات فىمدينة الملاهى ..

ـ وماذا يقترن فى ذهنك باللون الاسود ؟

ـ رباط عنقك .. وحذاؤك ..

ـ ولكن لابد أنك رأيت أشياء أخرى سوداء قبل هذين ؟

ـ نعم .. مدخل النفق الذى يدخله قطار الملاهى ..

ومما يستلفت النظر طبعا ان ينتقل ذهنها من نفق

قطار الملاهى المعتم الى شخصى .. وكأنها تريد أن تعرف ماذا سيحدث لها منى ـ بعد ذلك ـ مثلما يتملكها الفضول الرهيب لمعرفة ماسيحدث لها بعد أن يغيب بهـــا قطار الملاهى داخل فوهة النفق المظلمة !

ومما يزيد فى هذه الدلالة أن رباط عنقى لم يكن أسود اللون حقـــا .. بل كان رماديا داكنا ، ولكن الارتبـــاط الوجدانى بين علامة الاستفهام الخاصة بموقفى منها وبين علامة الاستفهام الخاصة بفوهة النفق السوداء جعلهـــا تقرب اللون الرمادى الى الاسود .. كى تتم المطابقة بين الرمزين

وهذا نموذج مناسب للكيفية التى نستنبط بها حقيقة الحالة النفسية لشخص يحرص على اخفاء مشاعره نحونا .. فلو انى سألتها مباشرة عن شعورها نحوى لما ظفرت بطائل ..

ومن الواضح اننى متى اكتشفت ان مشاعر الفتى أو الفتاة نحوى فى مثل هذه الدرجة من التوتر والتخوف ، فمن الواجب أن أتريث ولا اقدم على خطوة جديدة . . بل يجب أن اقضى على هذا التوتر أولا ..

وكانت خطوتى التى أقدمت عليها مع هذه الفتاة هى انى سألتها :

ـ وماذا رأيت فى جولتك بالقطار داخل النفق ؟

ـ رأيت أشباحا متوهجة تبرز فجأة فتشق الظـلام وتمرق من امامى .. ورأيت الأبالسة وهم يقلدون الارواح الشريرة وأجساد الخطاة فى نيران جهنم . . ورأيت أيضا العفاريت الصغار يحفرون الارض ليحصـلوا على الكنز الذى أخفاه القرصان ..

وهى كلها صور مرعبة .. اكدت لى فزعهـــا منى ، فحولت الحديث الى الكلام عن روايات القرصان . ومن هناك تدرجت بها الى روايات « شارلى شابلن » و«لوريل وهاردى » .. ثم انتقلنا الى الاراجيـــح . فضحكت وقالت :

ــ على فكرة .. فى المولد مع الاراجيح يأتى رجل له عمامة كبيرة ولحية .. وهو يكشف للناس عن مستقبلهم

واخذت أستزيدها ، فاذا بها تحدثنى عن جوانب من مدينة الملاهى عكس الجانب السابق تمـاما ، فهى جوانب مفرحة . ولمعت عيناها وهى تسرد لى ذكرياتها فيها . . فادركت ان حالتها النفسية تغــــيرت ، وان الوقت قد صار مناسبا للابتداء بعملية التحويل . ورحت أوجه اليها الاسئلة المباشرة ، على اعتبار أننى فى موضع يسمح لى بذلك .. فتجيبنى ببـــراءة وبلا تحفظ ، حتى اذا بدأت تتحفظ أدركت أن ثقتها بى قاربت النفاد ، فألجأ الى طريقة جديدة لتقوية هذه الثقة

وسأذكر الان حالة فتـــاة ، استطعت أن أقضى على شعورها بالتوجس بنجاح ، وأقتلع اسباب ريبتها من جذورها ...

وهذه الفتاة فى السادسة عشرة من عمرها .. وكانت تحت الاشراف فى الاصلاحية ، لانها كانت تصر على الظهور بكل مظاهر الاستهتار والمجون الفـــــاضح .. واذا بها تنقلب فجأة من الوقاحة والتبــذل الى التــزمت فى كل شىء ، مما أدهش المشرفين فطلبوا منى أن أتولى امرها لمعرفة أسباب هذا الانقــلاب المفــاجىء من النقيض الى النقيض ..

ولما دخلت مكتبى لاول مرة ، بدا عليها بوضوح أنها لا تثق بى .. فكلما سألتها عن أحوالها ، أو عن قراءاتها ، سكتت ولم تجب .. فسألتها عن أحلامها فلم تفتح فمها .. ولكنى كتمت غيظى وضحكت قائلا :

ـ انا مقدر طبعا أنك تتوهمين أننى خطر عليك .. ولكن ثقى انه لا ضرر اطلاقا من أن تحكى لى رواية رأيتها فى السينما يوما من الايام ..

وعندئذ ضحكت .. وبدأت تكلمنى عن بهلوان كان عليه فى الفيلم أن يقفز من ارتفاع كبير ويمر داخل حلقة من النيران .. وأن هذا البهلوان كان يحب امرأتين ، فأقدمت احداهما على قطع السلك بدافع الغيرة فسقط وسط النار ، ولكن المرأة الاخرى أنقذته مضحية بنفسها ..

ومن البديهى انها لم تذكر لى قصة الفيلم كما هى .. بل كما تصورتها ، ولذا سألتها :

ـ ما أحسن موقف فى هذه الرواية فى نظرك ؟

ـ حين ضحت الفتاة بحياتها فى سبيل حبيبها ..

وكانت هذه هى الاجابة التى انتظرها منها بالضبط ..

ـ هل تتذكرين ملامح هذا البهلوان ؟

ـ نعم ..

ـ اذكرى الملامح التى يجب أن تتوفر للبطل حتى بظفر باعجابك ..

ـ أن يكون شابا رشيقا أسود الشعر حليق اللحية لامع العينين ..

ـ والان خبرينى ماهو شكل فتاك ؟

فارتبكت قليلا ، ثم قالت :

ـ هذا هو شكله فعلا ..

وكان هذا كافيا لنزع السداد عن القارورة .. فقد اندفعت فى حديث متدفق من تلقاء نفسها عن حبيبها ، فذكرت لى أنه يدرس الكيمياء ، وأن أمها لا تأذن لها فى الخروج معه وحدهما ..

وكان من السهل بعد ذلك أن تعرف أن حبها لهذا الشاب الخجول اللطيف ، كان هو السبب فى انقلابها من التبذل الى الدماثة والاحتشام الشديد

***

والان سأذكر حالة اخرى لفتى فى الثالثة عشرة من عمره .. كان يتخلف عن المدرسة يوم الثلاثاء ، ويوم الجمعة ، من كل أسبوع شهورا متوالية .. ثم اتضح انه فى هذين اليومين يذهب الى سباق الخيل ، لا لانه يحب السباق ، بل لتعلقه بأحد الجوكية . ولم أحاول أن أصرفه عن ذلك . بل وجدت أن أفضل طريقة للتحويل هى اظهار الموافقة على سلوكه المستهجن من الجميع . وشيئا فشيئا تحولت عواطفه من مدرب الخيول الى شخصى .. وبعد ذلك وجهته بلطف الى التعلق بالمدرسة . ثم بدأت أنسحب من حياته ، وأقلل من مقابلاته ..

***

وأصعب مايكون التحويل بالنسبة للمصابين بالنرجسية .. أى الذين يعشقون أنفسهم . وسأذكر هنا حالة شاب فى السابعة عشرة من عمره ، ضارب فى السوق السوداء حتى كون لنفسه ثروة طائلة . وكان فى بداية حياته العملية صرافا يعمل فى تبديل النقود على قارعة الطريق لحساب رجل كان يأتمنه .. فاستغل الظرف ، وعقد صفقات مع مهربى العملات الاجنبية ربح منها رأس مال

لا بأس به .. غامر به فى السوق السوداء . وقام برحلات كثيرة لهذا الغرض خارج الحدود حتى جمع مالا طائلا يسر له الانتساب لأفخم النوادى .. وجمع حوله رفاق السوء ، فلم يلبث أن أفلس . وعندئذ انقلب الى بلطجى .. فباع أثاث بيت أمه الارملة وثيابها ، وهى سيدة مسكينة مات زوجها بعد حياة غير موفقة معها .. ولما يئست من اصلاح هذا الابن لجأت الينا ..

ولما أدخلناه المؤسسة ، لم يثر فى وجهنا أى نوع من الصعوبات .. بل حاول أن يقلب المؤسسة الى ميدان جديد للنجاح والتسلق ، فأبدى نشاطا كبيرا وهمة فى معاونة المسئولين على حفظ النظام وأداء الخدمات الصغيرة ولا سيما فى الاعمال الكتابية .. كما أحسن معاشرة زملائه ، فسرعان ما وصل الى مرتبة الزعامة بينهم ..

ومثل هؤلاء الشبان ينبغى الحذر من نعومتهم المفرطة .. فتحت ظاهرهم الصافى أعماق زئبقية مضللة بحيث لا يستطيع الانسان أن يعرف الجانب الحقيقى من نفوسهم .. فتهذيبهم الظاهرى قناع متقن للغاية ، أساسه التصنع التام . وهذا التصنع يحجز عنا عواطفهم الحقيقية ، وبذلك تظل علاقتنا — نحن المعالجين — بهم علاقة سطحية تماما . ويكون من المحال قيام أى علاقة وجدانية حقيقية صادقة — من أى لون — بيننا وبينهم ، حتى ولو كانت علاقة كراهية . وهكذا يتعذر الشروع فى عملية التحويل بالنسبة لهم .. وبدون عملية التحويل ، لا يمكن أن نغير اتجاه تيارهم الوجدانى والعقلى ..

وينخدع قليلو التجربة فى سلوك هؤلاء النفر ، فيظنون انهم شفوا بسرعة مذهلة من انحرافهم .. ولكن متى أطلق سراحهم عادوا الى الاعوجاج ..

وهذا الشاب الذى أتحدث عنه ، بقى فى الاصلاحية عدة أشهر من غير أن ننفذ من الطبقة العازلة التى أحاط بها وجدانه فى صورة هذا المسلك المهـــذب المنقاد .. فقررت أن أبعده عن بيئته الجديدة على سبيل التجربة ، ولكنى فى الوقت نفسه لم أرد أن أطرده .. بل فضلت الاحتيال عليه كى يسعى هو للهرب . وفعلا بلغنى ذات يوم أنه انتهز الفرصـــة التى اتحناها له وانطلق من الاصلاحية ، ولم يكن المشرف المباشر يعلم أننى دبرت تلك الفرصـــة ، لأن هؤلاء الذين يخالطون الشبـــبان لا يستطيعون فى الغالب أن يكتموا الاسرار عنهم ..

وكنت أتوقع أن يعود بعـــد يوم أو يومين من الجوع والتشرد مقتنعا بأفضلية الحياة الناعمة فى الاصلاحية.. فتكون لحظة عودته هى لحظـة الضعف والهزيمة التى يتحطم فيها القنـــاع العازل ، وتتكشـف فيها حقيقته الوجدانية .. وبالتالى فهى لحظة مناسـبة للشروع فى التحويل !

وانقضى أسبوع ولم يعد صاحبنا .. فبدأت أرتاب فى صدق فراستى . ولكن فى اليوم العاشر ــ وفى الساعة التاسـعة مساء ــ سـمعت طرقا خفيفا على باب بيتى الملحق بالمؤسسة .. وكان الشاب الهارب هو الطارق ، وقد نال منه الاعياء بدرجة اقنعتنى أنى استطيع ان احقق معه الآن أكثر مما كنت اتصور ..

ولم اوجه اليه اى لوم على هربه .. وبذلك خيبت ظنه ، واكتفيت بأن نظرت اليه نظرة جادة وسألته :

ــ متى تناولت آخر وجبة ؟

ــ مساء أمس ..

ــ منذ اربع وعشرين ساعة ؟ اذن تعال معى ..

واخذته الى حجرة المائدة ، حيث كانت أسرتى جالسة لتناول العشاء . وأمرت له بطبق كى يأكل معنا .. واذا بهذا الشاب الذى كان مضرب المثل فى الثبات يفقد سيطرته على نفسه حتى يعجز عن ابتلاع الطعام .. وتجاهلت انى أدرك ما اعتراه ، وسألته ببساطة :

ــ لماذا لا تأكل ؟ ..

ــ لا استطيع .. هل يمكننى أن آكل على انفراد ؟

ــ يمكنك أن تتناول طعامك على مائدة المطبخ ان شئت ..

وحمل طعامه الى المطبخ والتهمه بسرعة .. وملأنا له صحفته مرتين بعدها الى أن شبع .. ثم قلت له بهدوء :

ــ لقد تجاوزت الساعة الآن العاشرة .. فلا يمكنك أن تعود الليلة لتبيت مع زملائك .. ولكن لا مانع من أن تنام هنا فى البهو

وأعددنا له فى البهو فراشا .. ثم ربت رأسه وتركته لينام . ولما أصبح الصباح ، كان التحويل قد سار شوطا بعيدا . وبعد مدة وجيزة ، صرت أرسله الى المدينة ليشترى للمؤسسة الاغذية بمبالغ لا بأس بها .. فلم يحاول الهرب ، وعندئذ أدركت أنه شفى ..

وسعينا فألحقناه بالعمل مندوبا تجاريا متجولا .. وهو عمل يحتاج الى أمانة شديدة فى المال وأسرار الصفقات. وظللنا نتعقبه ونستقصي أخباره ست سنوات، تدرج فى خلالها من عمل الى عمل أفضل ، فى شركات أكبر بكل نجاح واستقامة ..

مبادئ في العلاج النفسي

الفصل الرابع



مبدأ الواقع

يولد الطفل ومعه زاد كبير من قدرات ضرورية ، يعيش بها في دنيانا .. وعلى أساسها يبنى تكيفه مع المجتمع المعين الذى سيعيش فيه . ومن الواضح أن التربية فى البيت والتربية بالمعنى الواسع (أى كل مايتعلمه الشخص عن طريق الخبرة والتجربة ودروس الزمن) تقوم بدور هام جدا فى تنمية هذه القدرات الوراثية التى يولد بها الطفل .. وليس هذا الكلام من قبيل النظريات المجردة أو الفروض ، وانما هو واقع ملموس لنا فى كل يوم .. كما نلمس أيضا التأثير المتبادل بين التربيــــة فى الطفولة وبين خبرات الحياة طول العمر ..

ان الخبرة مثلا هى التى تدلنا على كيفية المحافظة على ذواتنا ، لان المحـافظة على الذات ميل غريزى وراثى . وهذه المحـافظة غير ممكنـــة الا اذا عرف الطفل كيف يتكيف تكيفا بدائيا مع الواقع الجديد خارج أحشاء أمه .. ثم يأتى دور التربية فيعرف الطفل كيف يستغل خبرته وقدرته كى يتكيف مع مطالب المجتمع الكبير ..

ومع أننا ندرك تداخل التربية والخبرة تداخلا عميقا فى تكوين الطفل ، الا أننا نفضل لتوضيح المسائل امام القراء أن نفصل أثر الخبرة عن أثر التربيــة .. فذلك الفصل الذهنى ، هو الذى سيتيح لنا فهم عمليات التربية

فهما يمكننا من علاج الانحرافات التى تطرأ على الشباب من الجنسين

ومن الواضح أن التربية تقوم بعملية انتقـائية .. بمعنى أنهـا تحول دون نمو القدرات الفطرية التى لا يرضى عنها المجتمع ، لان مهمة التربية هى تنمية العمليات النفسية التى تمكن الطفل الصغير من الانتقال بالتدريج الى شخص ناضج .. وهى بالضبط عملية تحول كائن حى كل همه اشباع دوافعه الغريزية ، الى كائن حى قادر على الاشتراك فى العمليات والنظم الاجتماعيةبنجاح وتوفيق

وقد اهتم « سيجموند فرويد » فى كتابه « محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى » بالبحث عما اذا كانت هناك فى أعمال الجهاز العقلى غـايات أو أغراض متميزة .. ووصل فى النهاية الى أن غاية الجهاز العقلى الاولى هى اللذة ، فنادى بأن كل أنواع النشاط العقلى لا غاية لها فى النهاية سوى تحقيق اللذة وتجنب الالم . ثم شرح « فرويد » كيفية انتظام العملية العقلية انتظاما آليا على أساس هذا الميل الجوهرى الذى سماه « مبدأ اللذة »

وقد أثارت هذه التسميةاستياء الكثيرين .. فما أكثر الذين سمعوا كلمة « مبـدأ اللذة » لاول مرة ، فكان رد الفعل لديهم هو النفور من الاعتراف به فضـلا عن تطبيقه .. ولذا لقى « مبدأ اللذة » استنكارا ومعارضـة شديدين

وكان أول اعتراض بالبداهة على هذا المبـدأ ، هو أن تجارب كل واحد منا تدله على أن نتائج كثير من الاعمال العقلية مرتبطة بالالم لا باللذة .. وهذا لو صح كاف لهدم نظرية « فرويد »

ولكن ليس من اللائق أن يتسرع الانسان فى الحكم

على أعمال رجل دقيق عميق فى أبحاثه مثل « فرويد » .. بل الواجب قبل أن ننقده ان نتأكد أولا من حسن فهمنا لمقاصده .. والسبيل الوحيد لهذا الفهم ، هو تتبع ما قدمه للتدليل على صحة نظريته من البراهين والاسانيد

ان « فرويد » يرى أن اللاشعور هو أهم مصدر لنشاطنا العقلى .. والغرائز ، والرغبات ، تنبع من اللاشعور أيضا ، والمبدأ الوحيد الذى يسيطر على اللاشعور بأكمله هو « مبدأ اللذة » ..

ومن حقنا طبعا أن نتساءل عن مغزى هذا الكلام ..

يلاحظ « فرويد » أن كل ما يصدر عن اللاشعور ليس له هدف الا الحصول على اللذة . ويلاحظ فى الوقت نفسه ان العالم الخارجى لا يكترث بما نطلبه من اللذة ، أو هو لا يعترف بحقنا فيها .. والعالم الخارجى حين يمنحنا اللذة أحيانا أو يحرمنا منها ، لا يبالى بنا بل يخضع فى ذلك لظروف خاصة بالعالم الخارجى لا باللاشعور عندنا ..

وعلى هذا الاساس كثيرا ما توجد مواقف تحول بين الانسان وتحقيق اللذة .. بل وتعارضه فى ذلك معارضة حاسمة . ومن أقرب الامثلة لذلك : الطفل حديثالولادة الذى يخضع خضوعا تاما لوظائفه اللاشعورية .. وهو فى حالة ارتياح مستمرة ، لا يضطرب الا عندما يشعر بضغط احتياجاته الجسمية .. تلك الاحتياجات الناشئة عن غرائزه المتعلقة بحفظ الذات والتى لابد لهامن الحصول على الاشباع المناسب ، كى تتجنب هذا الالم المترتب على الحرمان والاحتياج .. فهذا الطفل حديث الولادة لا يسير وفق أى قانون سوى حاجاته الغريزية ،

تلك الحاجات التى لاهدف لها الا تحصيل اللذة أو الارتياح بصرف النظر كلية عن الواقع الخارجى ..

وهذا هو السر فى تعرض الطفل الصغير فى كثير من الاحيان للفشل أو العجز عن اشباع غرائزه . فيشعر بأنه لم يحصل على ما كان ينشده أو يتوقعه ، ويترتب على هذا شعور شديد بالالم بدلا من الشعور باللذة التى كان ينشدها عن طريق الاشباع ..

ومع التدرج فى النمو ، تتكيف العمليات النفسية لدى الطفل شيئا فشيئا بالواقع الخارجى الذى يعيش فيه .. لانه يتبين بالتجربة أن مراعاة الواقع ، ومسايرته والتكيف به ، هى وسيلته الوحيدة لحصوله على أقصى ما يمكنه الحصول عليه من رغباته الشخصية ..

وبديهى ان هذا التكيف لا يتحقق دفعة واحدة ، لانه نتيجة عملية طويلة جدا من عمليات النمو ..

ومن أعماق اللاشعور تصدر جميع المعلومات المتعلقة بوظائف الجسم ، فيتلقاها الشعور كما يتلقى من العالم الخارجى جميع ماتنقله اليه أجهزة الحواس المعروفة . وبمرور الوقت يصبح الشعور أو « الأنا » قادرا بالتدريج على التوافق والانسجام مع مطالب الحياة البدنية والخارجية . ومن أهم علامات هذا النمو نمو النضج والاتزان والتوافق ، أن يعدل الشخص سعيه الفطرى الاول وراء لذته المباشرة

ومن مقتضيات هذا التعديل أن يؤجل الشخص بعض رغباته ، أو يصرف النظر عنها ، لما يحول دون اشباعها من عقبات لا يمكنه التغلب عليها .. أو لما قد يترتب على هذا الاشباع الغريزى من متاعب وآلام ، اذا كان هذا

الاشباع غير مشمول برضى المجتمع .. فذلك كله يدفع الشخص الى اتباع القمع لرغباته الغريزية ..

وبعد فترة ، يجد الطفل ان تجنب الالم أمر ضرورى لاتقل أهميته عن أشباع الرغبات للحصول على اللذة المباشرة . وهكذا تتقلص سيطرة مبدأ اللذة على نفسية الطفل فى الجانب الشعورى أو الواعى ، مع تقدمه فى التجربة والنمو .. لان مبدأ آخر مصدره الشعور سيزاحم مبدأ اللذة اللاشعورى فى النفوذ والسلطان . وهذا المبدأ الشعورى هو تجنب الالم عن طريق كبح دوافع اللذة اللاشعورية الجامحة ، وتركيب لجم لها تعدل طريق سيرها المندفع ، بحيث تسلك سبلا الى الاشباع لا تؤدى الى ألم أو اصطدام بنظم المجتمع ولوفى الظاهر ..!

ومبدأ تجنب الالم ومراعاة الظروف الخارجية ، قد اختار له « فرويد » اسم « مبدأ الواقع » . ونشوء هذا المبدأ يعتبر خطوة حاسمة فى مراحل النمو العقلى والنفسى عند الطفل .. اذ بعد رسوخ هذا المبدأ الجديد تصبح لمركبة النفس عند الطفل جوادان : أحدهما مبدأ اللذة اللاشعورى ، والآخر مبدأ الواقع الشعورى .. فهذان المبدآن يوجهان جميع العمليات العقلية ، فيتحكم مبدأ الواقع فى العملية الشعورية ، ويتحكم مبدأ اللذة فى العمليات اللاشعورية

وهكذا يكون فى الشخص ازدواج ضمنى .. فذاته اللاشعورية تجرى وراء اللذة دائما ، وتعمل على تجنب الالم . أما الذات الواقعية فهدفها الحصول على المنافع العملية بجميع أنواعها وحماية صاحبها من الاخطار والمضار .. ولو عن طريق كف أو كبت المطالب الغريزية ..

ولهذا يتفاوت الناس كثيراً فى قدرة ذاتهم الواعية ـ الخاضعة لمبدأ الواقع ـ على مقـاومة الرغبات الغريزية اللاشعورية ، وقطع الطريق عليها تماما أو تحويلها الى طرق لاتغضب المجتمع ..

ومن مصلحة كل شخص ان يعرف ـ فى وقت مبكر من حياته بقدر الامكان ـ مدى الاخطار التى تتهدده نتيجـة التعارض بين رغباته الغريزية ومطالب الواقع .. فهـذا الوعى المبكر لتلك الاخطار يجعل الشخص أقدر على مواجهة الواقع والتجاوب معه ، وعلى التوافق الذى يسمى توافقا اجتماعيا

هذا هو مجمل وجهة نظر « سيجموند فرويد » .. ومنه ندرك أن مبدأ الواقع هو الذى يوجه الطفل فى نموه التدريجى من عالم اللذة اللاشعورى الوهمى الى عالم الواقع ، ويمكنه من تعديل مطالبه واحتياجاته الفطرية التى هدفها اللذة بحيث تتوافق مع مطالب الحياة ..

وحينما يكون الطفل صغيرا ، تكون بالطبع قدرته على التوافق مع الواقع محدودة جدا وضعيفة . وفى هـذه الحالة تجرى الذات وراء الاشباع الغريزى السريع المباشر ، وتكون عاجزة تقريبا عن نبذ اللذة وعن تحمل الالم على حد سواء . ولذا فمن أحسن الوسائل لتحديد مراحل نمو الطفل ، أو مستويات نموه ، أن نقيس مدى تفوق مبدأ اللذة اللاشعورى عنده على مبدأ الواقع

ان مبدأ الواقع هو صمام الامان الذى تستخدمه الذات ضد تهور مبدأ اللذة .. ولكن صمام الامان هـذا ليس معناه أن تنكر الذات على نفسها كل حق فى طلب اى لذة ، فمبدأ الواقع لا يلغى اللذة .. بل انه يوفق بينها وبين

الواقع ، فكأنه الصانع الذى يصب المادة الخام فى القالب المطلوب

ومبدأ الواقع تمشيا مع مراعاة الظروف الخارجية ـ ومنها الاوضـــاع الاجتماعية ـ يضحى باللذة المباشرة العاجلة ، فى سبيل لذة آجلة أو لذة من نوع غير مباشر..

وعلى أساس هذا الفهم ، ندرك السر فى القول بأن المرء قد يتحمل الالم وهو يخضع لمبدأ اللذة .. اذ أن الانسان حين يتحمــل الالم ، يكون مسيرا بمبدأ الواقع لا بمبدأ اللذة ، وأملا فى أن يتمخض تحمله للالم عن حصوله فيما بعد على لذة من نوع آخر ..

وفى بعض الاحيان ، يحدث الالم نتيجة لصراع الذات التى لم تنضج بعد مع مقتضيات الواقع . ومعنى هذا أن الرغبات الغريزية التى يسيطر عليها مبدأ اللذة ، قد تندفع بالفرد فى وقت لا يكون قادرا فيه على التحكم فيها بحسب مبدأ الواقع ..

ثم يجب الا ننسى أن التجربة المؤلمة شعوريا ، قد تكون فى الوقت نفسه ذات جانب سار لا شعورى ..

ويجب الا يغفل المربى عن حقيقة ذات أهمية كبرى فى علم النفس ، وهى أن نشوء مبدأ الواقع ونموه انما هو نتيجة لعوامل العالم الخارجى ، التى تلزم الطفل أن يسيطر على حاجاته الغريزية ويتحكم فيها ..

ولكن ليس معنى هذا القول بأن مبــدأ الواقع يزداد تمكنا ورسوخا كلما اشتد الحرمان المفروض على الطفل، فان عدم اغفال الواقع واحترامه لا يجب أن يكون ثمنه هو اغفال شىء آخر هام جدا الا وهو العوامل الفطرية الموجودة فى سريرة الطفل نفسه ..

ان القول بأن العوامل الداخلية واللاشعورية هي المهمة وحدها ، قول خاطيء .. وكذلك القول بأن العوامل الخارجية هي المتفردة بالاهمية قول خاطيء أيضا ، فلابد من اعطاء الجانب اللاشعوري والجانب الواقعي حقهما معا ..

ومن واجب المربي في هذا الصدد ، الا يهتم بالمشكلات الخارجية من حيث هي .. بل ينبغي أن يكون اهتمامه منصبا أيضا على ادراك مدى احساس الطفل بهذه المشكلات وطريقة استجابته لها ..

وتوضيحا لذلك نقول أن الحرمان من شيء معين قد يكون عميق الاثر على طفل معين .. ولكن الحرمان من هذا الشيء نفسه قد لا يكون له أثر على الاطلاق لدى طفل آخر ، فاستجابة كل طفل تختلف بحسب استعداده الفطري .. وهذا هو ما يسمى نسبية الاستجابة والحساسية

والى هذه النقطة من النسبية ، تستند الام بطلة القصة المشهورة التي يرويها الناس على سبيل النكتة .. حين قالت لمعلم ابنها في المدرسة :

ــ ان ابني طفل حساس جدا .. يكفي حين يرتكب خطأ ، أن تعاقب الطفل الذي بجواره فيفهم هو ويتأثر .. وقد يبكي !

وكل خطأ السيدة أنه فاتها أن تذكر ان الطفل الذي بجوار ابنها ، قد يكون شبيها به في حساسيته ، وله اعتباره الكامل الذي لا يسمح بأن يحمله المعلم مسئوليات وعواقب ذنوب الطفل الذي بجواره .. !

ونحن على كل حال لا نستطيع أن نتحكم في نفسيات

الاطفال كما نتحكم فى الآلات .. ولذا ليس فى وسعنا أن نحدد قدر الحرمـان اللازم لطفل ما كى يتكيف مع الواقع تكيفا مناسبا . ولكن يجب الاعتماد على الفطنة والملاحظة المستمرة كي نتعرف على الجرعة الصحيحة من الحرمان المناسب ، لأن هذه الجرعة اذا زادت على حد معين أو نقصت عن حد معين كانت لها نتائج عكسية !

وما أكثر أنواع الانحراف التى يتعرض لها الطفـل ، ويكون سببها فى نهاية الامر انه كان هدفا للقسوة الباطشة أو الحنان والتدليل قبل الاوان المناسب !



التعويض

ومن حقنا ان نتساءل الآن عن الفرد وهو ينمو نمـوا عاديا ، أليس من حقه ان يعوض نفسه عن الحرمان من اللذة التي يحرمها عليه عالم الواقع ؟

واذا كان هــذا من حقه فكيف الســبيل الى ذلك التعويض ؟

والحقيقة أن الذات أو « الانا » لا تخضع باستسلام تام لمقتضيات الواقع ، لمجرد أن هذه المقتضيات عنيفة طاغية باطشة .. بل يلجأ « الأنا » الى اقتطاع جزء من الواقع يجعله خاضعا لمبدأ اللذة اللاشعورى ..

وقد يبدو هذا الكلام غريبا أو غامضا .. ولكن كلامنا في الواقع قد جرب ذلك في نفســه ، لان هــذه العملية هى بالضبط عملية التوهم والتخيل وأحلام اليقظة وما الى ذلك .. فهذه كلها قطع من الواقع يتصرف فيها « الانا » على حسب هواه بما يرضى لذته اللاشعورية الممنوعة من الاشباع !

وكل من يعرف شيئا عن حياة الأطفال ، يدرك الاهمية الكبرى لهذه العمليات التى نسميها عمليات التوهم .. فدلع الطفل باللعب ليس الا تنفيذا لمبدأ التوهم ، والطفل اذ يلعب يخلع على الاشياء من حوله صفات لا أصل لهـا سوى ذاته .. بل ويقوم هو بأدوار ، ويجعل لنفســه صفات لا أصل لها الا رغبته وهواه . وهذا متنفس ضخم للذات والرغبات اللاشعورية التى لايمكن للصغير اشباعها فى عالم الواقع

ومع نمو الطفل وانقطاعه عن اللعب ـ بمعناه الضيق ـ تجد هذه العملية متنفسا فى أحلام اليقظـــة التى تلازم الانسان فى جميع مراحل عمره ..

ولذا يمكننا القول ان الشخص الذى يخطئه اشباع رغباته فى حدود الواقع ، يستطيع ان يعوض نفسه عن هذا الحرمان بما يشــاء من الاســتمتاع الحر من جميع القيود فى دنيا الخيال ..

وأول انواع التكيف مع الواقع يكون بالضرورة تكيفـا بيولوجيا ، أى خاصا بوظائف الطفل البدنية .. وهــذا التكيف البيولوجى البدائى مع عالم الواقع ، يتوقف على الظروف المحيطة بالطفل

ويتلو ذلك التكيف البـدائى نوع أصـــــعب كثيرا ، ويستغرق مدة طويلة جدا .. وذلك هو التكيف الاجتماعى الذى لا يمكن أن يتم الا بفضل التربية . وعلى أساسه يصير الشخص مدركا لمطالب مجتمعه قادرا على مسايرتها .. اما بالخضوع لها أو الاستفادة منها . وبفضل هــذا التكيف ، يصل الشخص الى المشاركة فى تراث الحضارة سواء بالاستفادة أو تقديم الفائدة للآخرين .. كأفراد أو كمجموعة تعيش فى مجتمع معين وعصر معين

ولكن يجب ألا ننسى ان قدرة الفرد على التكيف بالواقع قدرة غير مطلقة .. بل تحدها قدرة الذات أو « الانا » على احتمال الحرمان ، فطاقة الاحتمال أهم بكثير من كميــة الحرمان المفروضة على الشخص .. فالشــــخص الذى تتوفر له شجاعة مواجهة الحرمان ، يكون أكثر احتمــالا لقدر أكبر من الحرمان .. بعكس الشخص الذى لا تتوفر له تلك الشجاعة ، فان أى قدر من الحرمان يكفى لادخال الاسى والحزن عليه وتثبيط همته

وفى ميدان التربية ، نجد أن قدرة الشخص على التعلم محدودة بما لديه من مواهب وراثية وقدرات فطرية . وأقصى ما يملكه المربى هو تهيئة الظروف الموافقة فى بيئة الطفل لمساعدة تلك المواهب الطبيعية على النمو والازدهار

وليس هذا كل شيء .. بل من الاهمية بمكان ان تكون لدى الطفل قدرة على الاستفادة من الفرص التى يهيؤها له المربى فى المجتمع والبيئة ، فيقبل على تنمية مواهبه .. ولا يشغله عن ذلك نوع آخر من اللذات الوقتية اللاشعورية

والصلة بين التكيف البدائى البيولوجى والتكيف الاجتماعى غير معدومة .. فاننا حين نتوسع فى التكيف البيولوجى البدائى وننميه ، نصل بالطفل الى هذا النوع الارقى من التكيف الذى يجعله كائنا مدنيا متحضرا أو شخصا اجتماعيا موفقا ..

والمربى الحقيقى للطفل فى هذه المراحل هو نفسه .. اما المربى الخارجى فقصاراه ان يكون عاملا مساعدا فى عملية النمو التى تقوم بها الذات متجهة الى التكيف مع الواقع ..

وهذه المساعدة التى يقدمها المربى أساسها ان يمد الطفل بالبواعث والحوافز التى تتيح له تغليب مبدأ الواقع الجديد على مبدأ اللذة الذى ولد به أو ولد معه ..

والطريق الذى سلكته الانسانية من التكيف البيولوجى المشترك بيننا وبين سائر الحيوانات الى المستوى الذى بلغناه من المدنية الاجتماعية ، طريق شاق طويل جدا .. فلا يستطيع الطفل آن يختصره فى فترة نموه القصيرة اختصارا غير مخل الا اذا اعانته علوم التربية وفنونها معونة عملية صادقة ..

والتكيف مع الواقع معناه اســــتخدام انواع كثيرة من التحكم والحرمان . وهذا ليس بالامر السهل بالنســـبة لأى طفل .. ولذا يجب أن يستغل المربى ظروف الحياة نفسها بحيث يقيم منها حواجز تحول دون الاشـــــباع الغريزى المباشر ، أو تجعل من ذلك الاشباع أمرا مستحيلا

وبهذه الطريقة يجعل الطفل وجها لوجه أمام الضرورات والظروف . فلا ينسب الى المربى انه يتعمده بالحرمـــان والاضطهاد والمضايقة .. ويفهم أن منطق الحيـــــاة هو الذى يحتم عليه تأجيل لذاته أحيانا ، أو التخلى عنهـــا أحيانا أخرى ، وأن يتحمل الالم الذى ينتـــج عن ذلك الحرمان من غير تذمر

وانا اعلم جيدا أن هذه الطريقة تتعارض مع النظريات العصرية التى انتشرت ، أو على الاصح تفشت بين الناس فى هذا الجيل .. فالناس يزعمون اليوم ان التربية المثلى هى أن نترك الطفل يفعل مـــا يريد ، ولا تزيد الجهود المبذولة لتربيته عن تلك الجهود التى نبذلها فى تربية جرو صغير ، أو جحش فى مزرعة !

ان هـــذا الرأى الذى يزعم اصـــحابه انهم عصريون تقدميون ، قد نشأ عن سوء الفهم لوسائل التربية وغايتها . وما من منطق معقول يجيز لنا ان نسمى ترك الطفل على هواه تماما تربية صالحة .. انه قد يكون حقا ، ولكنه بالتأكيد ليس النوع الصحيح السليم من التربية

ان كل انسان عاقل كانت له بالاطفال صـــلة ما ـ عن قرب أو بعد ـ يدرك أن الحجر على الدوافـــع الوقتية والتحكم فيها من جـــانب الطفل أو تحريمها عليه ، أمر لا مناص منه كى يمارس الطفل حياته اليومية ، ويتعـــود

ان يضع لنفسه الحدود المناسبة فى كل تصرف ..

وكيف يمكن ان يقبل الطفل فى المستقبل الخضوع لمنطق الحياة واوامرها ونواهيها ـ كما تتمثل فى المجتمع ـ من غير أن يتعود على الخضوع للاوامر والنواهى منذ نعومة أظفاره ؟

ولعل أوفق سؤال يمكن ان نوجهه الى انفسنا هو :

ـ هل توجد لدى الطفل انواع من الرغبات الفريزية تستوجب منا الوقوف فى وجهها اما بالقمع أو بالمنع ؟ أليس من الممكن ان نتجنب الوقوف من الطفل موقف التحريم بصورة نهائية ؟

ويكفى للاجابة ان نتصور طفلا ـ فى أواخر العام الثانى من عمره ـ لم نعوده على الوقوف أمام رغباته أو مقاومة أفعاله .. وسنجد هذا الطفل يجذب مفارش الموائد ، ويكسر كل ما هو قابل للكسر من التحف والآنية .. ويتخذ من مقاعد حجرة الاستقبال أرجوحات ، ويتعرض للوقوع نتيجة لتسلق الاماكن المرتفعة بلا تفكير .. ولا يتورع عن وضع أى مادة فى فمه ، ولا يتعفف عن دس أنفه فى أى شيء

ولو أن الامر وقف عند هذا الحد لهان الخطب ، وان كان فى حد ذاته لا يهون .. بل انما خليقون ان نجد ذلك الطفل لم يتعلم شيئا من أصول النظافة البدنية الاولية .. فمثله مثل أى قطة أتينا بها من الشارع الى البيت فى اليوم الاول ، فتملا ارجاءه بأنواع القاذورات التى تقلب الامعاء

ان الطفل فى هذه السن يجب ـ على الاقل ـ ان يعرف كل ما يعرفه الجرو النظيف المهذب الذى وجد من يعلمه قواعد النظافة البدنية . فيذهب الى المرحاض لقضاء

حاجته ، ولا يقضيها اينما كان بلا تمييز .. ويغسل فمه ويديه بعد الاكل ، ويحرص على نظافة وجهه وملابسه .. ويفكر ولو قليلا فى حركاته قبل أن يقدم عليها

ان القيود التى تفرض على الطفل ، كى يصل فى نهاية العام الثانى الى شىء من الاتزان والتهذيب ، انما هى فى صالح الطفل نفسه .. وان تراءت فى البداية أعمالا تحكمية تحول بينه وبين اشباع رغباته

وقد يقال ـ بل انه ليقال فعلا ـ ان الطفل يتعذب نتيجة لهذه الموانع ويتحمل آلاما اكبر من سنه . ونحن لا ننكر ان أى طفل ليس فى مقدوره ان يتخلى عن لذته ، ويخضع للواقع من غير الم وتجلد . ولكن هذا التجلد هو بعينه كفاحه المجيد فى سبيل التعلم والتأدب ، وفى سبيل الوصول الى التكيف بالواقع والتوافق مع أوضاع المجتمع وقيوده ..

وكل ما نطالب به المربى الواعى ، أن يبسط هذا التهذيب والترويض ويهونه على الطفل جهد التهوين .. وعليه بين الحين والحين ان يرخى العنان لرغبات الطفل بعض الشىء ، لاكل الشىء ، ولا كل الوقت فلا يجوز للمربى ان ينسى ان الطفل لم يزل خاضعا لمبدأ اللذة ، وأن كتم انفاس اللذة المباشرة طول الوقت انماهو بمثابة عملية خنق لفطرته

ولكن فى الوقت نفسه ، يجب على المربى وهو يرخى العنان أحيانا ، ألا ينسى انهذا التهاون أوالتساهل ليس جزءا من عملية التربية الصحيحة .. لأن الطفل لا يتعلم من التهاون والتساهل شيئا .. وانما هى فترة راحة من مجهود مقاومة الرغبات واللذات . وكل ما يتعلمه الطفل

من عمليات التكيف ، انما يتعلمه من مقاومة رغباته لامن الانسياق معها

وليست للموانع قيمة تربوية ، ما لم يدرك الطفل أن الاستغناء عن اللذة فى هذا الموقف بالذات أمر ضرورى .. وعلى المربى أن يختار بين احدى طريقتين للوصول الى ذلك ..

الطريقة الاولى ان يترك الطفل يحصل على الاشباع الضار – كما يشاء – بحيث يحدث له الضرر المنتظر ، فيعرف الطفل بالتجربة العملية ان هذا الألم هو ثمن الاشباع الضار المحرم

والطريقة الاخرى ان يعد المربى للطفل نوعا آخر من الاشباع يقوم مقام الاشباع الممنوع ، فيستعيض باللذة الحلال عن اللذة المحرمة .. وينسى تلك بهذه ..

وسواء فعل المربى هذا أو ذاك .. فعليه ان يصل بالطفل الى نبذ اللذة الضارة التى كان ينشدها ، وله ان يستخدم لتحقيق ذلك وسيلة من وسيلتين : اما الحب والتقريب فى حالة الطاعة ، واما العقاب الواضح فى حالة العصيان ..

وكلتا الوسيلتين نافعة ، وتؤدى الى النتيجة نفسها .. ولكن ينبغى الا نخلط بين المكافأة على الطاعة بالحب والرضا ، وبين اغراء الطفل بالتنازل عن رغباته فى نظير رشوة معينة .. فاننا فى هذه الحالة نعلمه اسلوبا جديدا خبيثا من التمسك باللذة . ونجعله يؤمن ان تلك اللذة لها قيمة ، وانه بتنازله عنها قد أدى للمربى لا لنفسه خدمة يستحق عليها أجرا يعمل باستمرار على رفعه ..

والواقع ان التربية لها وجهان ، هما الثواب والعقاب

.. وكلاهما مفيد ناجع . ومن النـاس فريق يشـب متوافقا مع المجتمع خوفا من العقاب ، وفريق آخر يتوافق مع المجتمع عن طمع لا عن فزع ..

وليس معنى قولنا ان كلتا الطريقتين مفيدة نافعة ،أن أى طريقة منهما يمكن ان تنجـح مائة فى المائة .. فنفس الشخص قد تنجح معه احدى الطريقتين فى مناسبة ما ، وتفشل معه فى مناسبة أخرى ..

ولكننا على العموم ، نستطيع ان نقول ان نجاح التربية رهن بمقدار الحب الذى يجده الطفل من أبويه ومربيه . ولكن هذا الحب يجب ألا يكون كالصنبور التالف ينساب منه الماء بغير حساب ، فالحب اذا جاوز الحـد شـأنه شأن العقاب ـ اذا جاوز الحد ـ خليق أن يفقد أثره ! .. بل انه أكثر من هذا خليق أن يؤدى الى عكس المقصود !

فمن الخير لنا أن نتذكر دائما أن الثواب لا يكون مفيدا الا اذا كان باعثا على الاجتهاد ، أو كان وسيلة لاقلاع الطفل عن لذاته الوقتية الضارة . أما اذا أغرق الآباء أطفـالهم بالحنان والتدليل من غير أن يكلفوهم ولا بالتخلى عن بعض رغباتهم أو تأجيلها . فلم يجد الاطفال معنى لازعاج أنفسهم للحصول على شىء مضمون أيا كانت النتيجة ، فلا يبقى الحب باعثا على الاجتهاد أو الطاعة ، والتخلى عن اللـذة فى سبيل الواقع .ويكسب الطفل بالعصيان تحقيق لذته الغريزية المباشرة وحب أبويه الممنوح له بلا قيد ولا شرط

والمثل البارز فى هذه الحالة هو الطفل الوحيد المدلل ، أو الطفل آخر العنقود ، فمثل هذا الطفل ينمو نموا جسميا عاديا أو فوق العادى . ولكنه يظل أسـير مبدأ اللذة ، مثلما كان فى طفولته الاولى ..

ومثل هذا الولد المدلل ، اذا خرج الى معترك الحياة

صدم بواقع المجتمع واختلافه الضخم عن بيئة بيته .. وتكون هذه الصدمة مصدر آلام فظيعة تجعله ينهار ويتداعى . ولا يستطيع الكف عن التحسر على نفسه ومصيره ، ومثل هذا المدلل اما ان ينقلب مجرما مستبدا ، أو يسقط صريع الفشل . وهو على الحالتين مريض فاشل منحرف ، اما فى صورة عدوانية أو صورة سلبية .. !

ولننتقل الان الى طريقة العقاب والوعيد .. وسنجد ان الاسراف فى القسوة عقابا على الاشباع الغريزى المحرم يجعل الطفل وكأنه ضحية .. ويتأكد لديه هذا الشعور المؤلم ، اذا لم تترتب على الطاعة تعويضات لتلك القسوة فى صورة حب وعطف ..

ان الطفل فى هذه الحالة خليق ان يجنح الى العصيان والتمرد ، لانه لن يخسر شيئا بالتمرد أكثر مما يخسره بالطاعة .. وهو على الاقل فى حالة التمرد سيكسب اللذة المباشرة الناتجة عن اشباع الرغبة ..

وهكذا يكون الاسراف فى العقاب قد عكس الغاية .. ولم يعلم الطفل الخضوع للمبدأ الواقع ، بل دفعه الى تحدى ذلك المبدأ تمردا على السلطة الغاشمة المفروضة عليه ..

ومن الطبيعى ان تنمو معه نفسية التمرد والعصيان ، فينتقل من التمرد على سلطة أبويه الى التمرد على سلطة معلميه ورؤسائه ، ونظم المجتمع كلها ..

والهدف الاول من هذا التمرد ، هو تأكيد ذاته ضد جميع السلطات التى تصادر رغباته ولذاته .. ويصبح هذا العصيان مصدر نوع جديد من اللذة القوية ، شبيه كل الشبه باللذة التى يحصل عليها من أشباع غرائزه

ويجب الا يغتر الآباء والمربون بالنجاح الوقتى لسياسة العنف والشدة المطلقة .. فيقولون هذا ولد مهذب خاضع مطيع لا يحيد عن سواء السبيل ، وليوقنوا من أن هذا الخضوع المطلق ستعقبه - ان عاجلا أو آجلا - ثورة عارمة تقلب سلوك الفتى رأسا على عقب حتى يعجب الناس لانقلاب هذا الحمل الوديع الى نمر مفترس بغير سابق نذير !



الفصل الخامس

خطر التدليل والقسوة

التدليل

ان اى انحراف ـ فى طريقة العقاب أو طريقة الثواب ـ يؤدى الى اعوجاج لا شك فيه . ومن المشـــــاهد ان الاطفال الذين لم تستقم تربيتهم ، ففقدوا الحب أو أغرقوا به ، يندفعون مع مبدأ اللذة الجارف اندفاعات تميزهم على الفور عن أقرانهم الذين نموا نموا نفسيا طبيعيا بفضل تربية قويمة .. وبهذه العلاقات نتعرف على المنحـرفين من الشبان ، ومن فى حاجة الى تقويم ..

ان اندفاع الشاب وراء اللذة اندفاعا يؤدى الى نشوب صراع بينه وبين المجتمـع ، والى تورطه فى انحرافات ، مسألة يجب أن تقابل بالعلاج المناسـب ، لا بالنبـــذ أو بالعقوبة المجردة .. فان من خصائص الشاب المنحـرف أن يكون متعطشا الى اشباع لذاته ، غير مبال فى هـــذا السبيل شيئا . وتفسير هذا التعطش المرضي أنه استمرار للرغبات الطفلية بعد ان انتهت مرحلة الطفولة .. فالشاب المنحرف مشكلته الاولى انه طفـل من النـــاحية العقلية والنفسية ، يتقمص جسم شاب نام !

ان الشاب المنحرف يشبه الطفل من حيث انه عاجـز عن التخلى عن لذاته العاجلة فى سبيل لذات أخرى آجلة . ولذا نجده يقدم على أقوال وافعال تعتبر عادية تماما لو صدرت عن طفل .. ولكنها اذ تصدر عن شاب تجعلنـا نعتبره شاذا ، لانه ينبغى أن يكون قد أقلع عما لا يليـق

بسنه من الافعال والاقوال ..

ولو أننا نظرنا هذه النظرة باستمرار الى جميع اعراض الانحراف عند الشبان ، لصار من السهل علينا فهم تلك الاعراض وتفسيرها وارجاعها الى عللها الاولى ..

وعلى ضوء خبرتى فى الاصلاحيات التى تضم شبانا مراهقين أو جاوزوا المراهقة ، أقول ان هذه المؤسسة الداخلية التى يعيش فيها هؤلاء المنحرفون تكاد تشبه مدارس الحضانة .. لكثرة حوادث الغيرة بين هؤلاء الشبان ، مما يؤدى الى العراك المستمر .. وكأنهم أطفال صغار يغارون من تقرب أحدهم الى الأب أو المعلم ، أو من ظفر احدهم بظاهرة عطف تميزه عن الاخرين

بل وفى غير الناحية الانفعالية ، نجد هذا الشبه الكبير بين الشبان المنحرفين وصغار الاطفال فى الناحية البدنية .. فمعظمهم يهملون نظافة أجسامهم كما يهملها الاطفال الصغار ، ويتركون شعرهم يطول ، وأظافرهم تتسخ وثيابهم تلطخها الاوساخ ..

وثمة وجه شبه آخر بين الشبان المنحرفين وصغار الاطفال ، من الناحية الذهنية .. فهم عاجزون عن التركيز الطويل فى موضوع واحد وعن الاهتمام الكافى بالاشياء .. ويتصفون بضعف الذاكرة ، وضعف التمييز وعدم القدرة على الحكم .. يستثيرهم أول مثير فينفرون ويندفعون من غير روية ، ومن غير قدرة على ضبط انفعالاتهم

والمشكلة فى أمر المنحرف البالغ ، أن ذاته لم يتم نمو جميع اجهزتها فى مستوى واحد .. فجزء معين من ذاته نما الى مستوى الواقع ونضج ، أما بقية ذاته فظلت غير ناضجة ، ولم تنتقل من عالم اللذة اللاشعورى

وعلى هذا يكون جزء من نفسه ناضجا متفقا مع عمره الزمني او اكبر فى بعض الاحيان .. وبقية نفسه أقل من عمره الزمنى بمراحل . فهو « مسخ » يجتمع فيه مستويان متفاوتان جداً من مستويات العمر ، أحدهما يسيطر عليه مبدأ اللذة العاتية اللاشعورية .. والآخر يسيطر عليه مبدأ الواقع ، فيحسن التصرف فى بعض الامور بكل تعقل ..

ومن المنحرفين من يكون تأخر نموه شاملا للناحية الجنسية .. ولكن هناك فريقا آخر من المنحرفين لم يتأخر نموه الجنسي ، ولا يوجد فى هذه الناحية عنده اى شذوذ أو اعوجاج أو تخلف ..

وقد يكون هذا التفاوت فى النمو ناتجا عن خطأ فى التربية ، فقد يحدث فى احدى مراحل النمو ان يتسبب المربى فى توقف بعض الوظائف العقلية .. فيحدث ما يسمى فى علم النفس « كف النمو » . وقد يحدث أيضا فى احدى مراحل النمو ان يهبط مستوى بعض الوظائف العقلية التى كانت قد نمت نموا حسنا .. وهذا هو ما يسمى فى علم النفس « النكوص »

وعلى هذا يمكن ان يقال بايجاز : ان الانحراف اما ان يكون نتيجة لكف النمو أو للنكوص الذى يصيب اى جانب من جوانب الطفل فى أى مرحلة من مراحل الانتقال من التكيف البدائي الى التكيف الاجتماعى

ومن الواضح ان المنحرف لا يعانى من ناحية التكيف البدائي أو البيولوجى .. ولكن مشكلاته جميعا أساسها اضطراب نموه نحو التكيف الاجتماعى مما يؤدى الى صراع مستمر بين نوع من رغباته غير المنتظمة وبين المجتمع

وفى عزمى ان أوضح النوعين الاساسيين من الانحراف

.. الا وهما الانحراف النـــــاتج عن الاسراف فى المحبة والتدليل والانحراف الناتج عن المبالغة فى القسوة والنبذ .. وسأذكر ما ينبغى لكل حالة من هاتين الحـالتين من وسائل العلاج

***

اما الانحراف الناتج عن الاسراف فى المحبة والتدليل ، فأكثر ما يوجد فى بيوت الطبقة الوسطى ..والمؤسف ان افراد هذه الطبقة لا يشعرون بما يرتكبونه من فظائع فى حق أبنائهم عن طريق هذا التدليل المسرف .. وعنـدما تتفاقم الحالة ينتهى الشاب الى عيادات التحليل

ومعظم الحالات التى مرت بى من هذا النوع حـــالات « طفل وحيد » ولا سـيما اذا كان أبوه قد مـــات عنه ، وانقطعت أمه الارملة لتربيته .. أو يكون أبواه قد انفصلا بالطلاق ، وكل منهما يتنافس فى كسب قلبه

وفى بعض الاحيان ، يخيل للزوجة ان زوجها منصرف عنها بقلبه أما الى امرأة أخرى ؛او الى نساء كثيرات، او الى اعماله .. وتحسين مركزه.. فلا تظفر من محبته الا بقسط ضئيل ، فتنصرف الى طفلها تغمره بطاقة حبهـا المعطلة .. أو تريد ان تحصل منه على كمية المحبة التى أعياها أن تحصل عليها عن طريق زوجها بصورة طبيعية !

ومثل هذه الام هى التى تربى الابن أسوأ تربية .. وكل من يعرف امرأة من هذا الطراز يعرف ولا شك مبلـــغ تلهفها على ابنها الحبيب ، واستعدادها للاقدام عــلى أى تضحية مهما غلت فى سبيل تجـنيبه أى نوع من الالم أو الحرمان

واذا فرضنا ان الطفل وجد أبا رشيدا ، أو معلما حازما،

وتراءى له ان لذعة العصا قد تصلح من أمره الشيء الكثير .. فما أشد اضطراب تلك الام ومبالغتها وتهويلها ، كأن العقاب نزل بها شخصيا مضروبا فى عشرة أضعاف .. وهذا الجزع من جانب الام أشد بكثير من جزع الطفل المعاقب نفسه ..

وكلنا يدرك أيضا ان مثل هذه الام تبدى من التلهف على تمتع ابنها بكل انواع اللذات العاجلة ، أكثر من تلهف الابن نفسه على لذاته .. فكأنه حين يستمتع ويتلذذ ، يستمتع ويتلذذ لها قبل نفسه ..

وقد يؤدى هذا الى فتور همة الابن حتى عن لذاته ، اعتمادا على أهتمامها بالنيابة عنه بتحقيق تلك اللذات .. فكأنها قد أعفته حتى من جهد السعى الى تحقيق لذاته ، بما تتكبده هى من مشقة فى السعى له ..

وانها لتتحمل نتائج ذلك بصبر عظيم .. وهذه النتائج هى أن الطفل المدلل متى فقـــد همة السعى والابتكار والتفكير لتحقيق لذاته ، وجه طاقة المبادأة والابتكار الى تنغيص عيشها بتدلله فيما يتعلق بمصلحته أو لذته أو متعته .. فهى تجد لذة كبرى فى تحمل تقلبات مزاجه وشيطنته ، بل تصبح هذه الشيطنة والنزوات وشرود الذهن موضوعا لاعجابها .. وترى فيه دليلا على الذكاء واصالة الشخصية أو خفة الروح ..

والويل لمن سولت له نفسه توجيه أى نقد قاس الى معبودها المدلل .. فكأنه بذلك قد وضع أســاس عداوة شخصية بينها وبينه . وأما رفاقه فى المباريات الرياضية فلن يكون نصيبهم منها الا النقد المر والدعاء عليهم بقصف أعمارهم اذا قاوموه فى اللعب مقاومة طبيعية ، وفازوا من دونه فى نهاية المباراة ..

مثل هذا الطفل يكون محور حيـــاة أمه التى تتكفل بتحريره من كل قيد واعفائه من كل مسئولية والتزام.. وبطبيعة الحال لا وجود لديه لشىء اسمه الواقع . وذلك لسبب بسيط هو أن أمه تقف سدا منيعا بينه وبين رؤية ذلك الواقع ! ..

وانه لطبيعى جدا ، وقد منع الطفل من تعديل مبدأ اللذة ، أن يظل مبدأ الواقع شيئا غريبا عن ادراكه .. !

وقد يحدث أن يمتنع مثلَ هذا الابن عن تنفيذ بعض رغباته ، لا لسبب تربوى بل لأن أمه تحول بينه وبين أى شىء قد يكون مصدر خطر على جسمه .. فهو يجب الا يتسلق الشجرة كى لا يقع على الارض ، ويجب الا يخرج الى الخلاء حتى لا يصاب ببرد .. وهلم جرا ..

ومن الطبيعى أيضا ألا يفهم الطفل الحكمة من هـذه القيود العجيبة التى تتمسك بها أمه ، والتى لا تتفق مع الحرية المطلقة المسموح له بهـــا فى كل شىء .. فيتمرد على تلك القيود !

والغالب الا تفهم هذه الام الموقف ، فتحاول تقـديم « رشاوى » اليه كى يتنازل عن تمرده وعصيانه ... اما فى صورة نقود ، أو مزيد من التدليل والمكافأة . ولـكن الطفل لا يلبث ، بعد قليل ، أن يسأم هذه المنح ويلجأ الى التمرد أو مطالبة الام بما فوق طاقتها .. فلا تستطيع تلبية طلبه . واذا بها قد عجزت عن تجنيبه مواجهة الواقع فى النهاية ، لأن عدم اجابة رغبته هى الواقع الذى أشفقت عليه من مواجهته فى الوقت المناسب ، فاذا به يواجهــه بعد فوات الاوان وقد تخلف عن الاستعداد لتلك المواجهة بزاد من التدريب الصالح على التكيف .. ذلك التدريب الذى هو لباب التربية الرشيدة

وتكون النتيجة هى الانحراف ، نتيجة الصراع غير المتكافىء مع الواقع ، واشتعال رغبات الفتى وجموحها ، والثورة على الموانع الاجتماعية .. ثورة قد تتخذ شكل الهرب أو التشرذ وغير ذلك

ولعل من المناسب هنا ، ونحن نتحدث عن الطفل ذى النزوات ، أن نذكر التجربة الطريفة التى وردت على لسان « اميل » فى كتاب « جان جاك روسو » الثمين عن التربية :

حدث أن قمت مدى بضعة أسابيع على شأن طفل ، كان قد تعود لا تنفيذ هواه فحسب ، بل وكذلك املاء ارادته على جميع من حوله ، ولذا كان هذا الطفل ذا بدوات ونزوات ..

ومنذ اليوم الاول ، حاول أن يجرب معى تلك السياسة ، ليعرف مدى قابليتى للتساهل .. فنهض من فراشه فى منتصف الليل ، وقفز وأنا غارق فى نومى .. فارتدى دثار الفرقة واخذ ينادينى ، فاستيقظت وأوقدت شمعة . ولم يكن مراده يتعدى ذلك .. فبعد ربع ساعة عاوده النعاس ، فرقد فى سريره راضيا عن التجربة التى قام بها !

وبعد يومين عاود الكرة ، ولقى من التوفيق ما لقيه فى المرة الاولى . أما أنا فلم اظهر شيئا من ضيق الصدر أو نفاد الصبر .. وكل ما هناك انى قلت عندما قبلنى لينام ، وبكل هدوء :

ـ يا صديقى الصغير ، لا بأس بما حدث .. ولكن اياك أن تعاود الكرة

ولا شك أن هذه الكلمة أثارت فضوله .. فمنذ اليوم التالى أراد أن يعرف كيف سأجسر على عصيانه ، فلم

يتردد فى أن يستيقظ فى الساعة عينها من منتصف الليل ويناديني .. فسألته ماذا يريد ، فقال لى أنه لا يستطيع أن ينام .. فقلت له :

ـ هذا من سوء حظك ..

ثم لذت بالصمت ، ولم أتحرك من موضعي.. فرجاني ان أوقد الشمعة . فسألته لماذا يريد الشمعة ، ثم لم أتحرك من موضعي .. فضايقته لهجة عدم الاكتراث التى استخدمتها معه ، فجعل يتحسس طريقه بحثا عن القداحة ، وتصنع محاولة استعمالها .. فلم أستطع ان أمنع نفسى من الضحك وأنا أسمعه يدق بها يده فتؤلمه . ولما يئس من النجاح فى استعمالها ، أتانى فى فراشى بالقداحة .. فقلت له انه لا حاجة لى بها . ثم أوليته ظهرى ورقدت على جنبى الآخر ، فراح يجرى فى الحجرة على غير هدى صائحا أو متغنيا ، محدثا ضجة كبيرة .. ومتخبطا بجسمه بين المقاعد والمنضدة ، حريصا على أن تكون الصدمات هينة. ومع هذا كان يستغلها فى الصراخ بشدة ، على أمل أن يدخل على نفسى القلق .. ولكن هذا كله لم يكن له أثر . ورأيت أن الطفل رتب أموره على اثارة الغضب ، ولم يخطر بباله أن أقابل ذلك بالهدوء والثبات ..

الا أنه عقد النية على التغلب على صبرى بقوة عناده ، فاستمر فى ضجته الى درجة اثارتنى .. فأدركت أنى سأفسد كل شىء بثورتى ، فعولت على تجنب ذلك بخطة جديدة ، فنهضت من فراشى من غير أن أقول شيئا .. وذهبت أبحث عن القداحة فلم أجدها .. فطلبتها منه . فأعطانى اياها وهو يكاد يقفز من الفرح لتمكنه فى نهاية الامر من الانتصار على .. فضربت القداحة واوقدت الشمعة

.. ثم اخذت الصغير من يده ، وجررته برفق الى حجرة مجاورة محكمة النوافذ ليس فيها ما يخشى عليه من تحطيمه .. وتركته هناك وحده من غير الشمعة ، واقفلت عليه الباب بالمفتاح .. ثم عدت ونمت فى فراشى من غير أن أقول له كلمة واحدة

ولا تسلنى هل كانت فى البداية ضجة هائلة .. فقد كنت اتوقع ذلك طبعا ، ولم يغظنى ذلك بتاتا . وأخيرا هدأت الضجة ، وأصغيت فسمعته يستقر حيث هو ويهدأ .. فاطمأن بالى ..

وفى اليوم التالى ، دخلت الخزانة فى وضح النهار .. فوجدت المتمرد الصغير راقدا على آريكة غارقا فى سنة من النوم . ولا شك أنه كان فى أشد الحاجة الى ذلك النوم العميق بعد كل ذلك العناء

بيد أن الموضوع لم يقف عند ذلك الحد .. فقد علمت الام أن الطفل قضى ثلثى الليل خارج فراشه ، فكأنما تقوضت اركان الدنيا وصار الطفل من الهالكين . ووجد الصغير الفرصة ملائمة للانتقام ، فتصنع المرض .. ولم يخطر بباله ان ذلك لن يجدى عليه شيئا

ودعى الطبيب .. وكان رجلا محبا للمزاح والارضاء ، وهذا من سوء حظ الام ، لانه اراد أن يتسلى بفزعها فراح يجسم لها مخاوفها ويضخمها .. ومال على اذنى يهمس لى :

ــ دعنى اتصرف .. واعدك أن الطفل سوف يشفى الى أمد طويل من تلك البدوات ، وعلى الاقل من نزوة المرض

وفعلا وصف للمريض الصغير غذاء كريها ، ودواء بغيضا، وحتم عليه ملازمة الفراش ملازمة دقيقة .. وهذا كله

مزعج للصغير غاية الازعاج . وحز فى نفسى أن أرى تلك الام المسكينة ضحيةخداع جميع منحولها ، فيما عداى أنا، الذى كانت تبغضنى ، لاننى لا أخدعها !

وبعد تقريع قاس ، قالت لى أن ابنها رقيق البنية ، وأنه الوارث الوحيد لاسرتها ، ويجب المحافظة على حياته بالغا ما بلغ الثمن .. وأنها لا تحب أن يلقى الطفل معارضة من أى نوع ..

وكانت تعنى بعدم معارضـــته أن أطيعه فى كل ما يخطر بباله .. فأدركت أنه ينبغى أن آتخذ فى خطاب الام ما اتخذته فى خطاب الطفل من لهجة ، فقلت لها بأقصى برود ممكن :

ـ أنا لا أدرى ياسيدتى كيف ينبغى أنيربى وريث.. وأكثر من هذا انى لا اريد أن أدرى كيف يربى وريث .. ويجب ان تدبرى أمورك على ذلك الاساس ..

وكانوا بحاجة الى مدةأخرى ، ريثما يعود المربىالاصلى من اجازته ، فتولى الابتهدئة الموقف.وكتبت الام الىالمربى تستعجل عودته .. أما الطفل ، فلما وجد أنه لن يجنى شيئا من اقلاق نومى ، ولا من تصنع المرض .. قرر أخيرا أن ينام من تلقاء نفسه بهدوء ، وان يكف عن المرض

ولا يمكن أن تتخيل أنواع البدوات والنزوات التى كان هذا الطفل يتفنن فيها لتنغيص حياة مربيه المسكين ، لان تربيته كانت تحت سمع الام وبصرها .. والام كانت لاتحتمل أن يعصى لوريثها المدلل أمر

فى أى لحظة من لحظات النهار يخطر للطفل أن يخرج ، كان ينبغى على المربى أن يكون متأهبا تمام الاهبة للخروج به من غير معارضة او استمهال .. وكان الطفـــل الماكر

يختار دواما الوقت الذى يرى فيه مربيه مشغولا جدا !

وأراد الطفل أن يفرض على تلك السلطه بعينها ، فينتقم من راحتي النهارية للراحة الليلية التى أجبرته أن يدعها لى ، وكنت متأهبا لخطته تلك .. فأظهرت له باستمرار السرور بتنفيذ رغباته . ثم بعد ذلك عولت على أن انتهج سياسة اخرى لشفائه من بداوته ..

ولما كنت اعلم أن الاطفال لا يفكرون الا فى اللحظة الحاضرة ، فقد حرصت على أن أوفر له فى البيت تسليات مما أعلم أنه يحبها جدا .. ومتى وجدته منغمسا فى التسلية تماما ، اقترحت عليه ان نخرج للنزهة ، وألح فلا يجيبنى .. فأخرج واتركه غير مقيد به !

وفى اليوم التالى انقلب الوضع .. لم يكن لديه ما يسليه فى البيت ، فتضجر .. أما أنا فكنت ابدو على العكس مشغولا جدا . وكان فى هذا الكفاية لكى يقرر ماذا يعمل .. فلم يتأخر عن الحضور لينتزعنى من عملى كى انطلق به الى نزهته ، فرفضت .. وأصر هو . فقلت له :

ـ كلا ، فانك حين نفذت أمس ارادتك علمتنى أن اتمسك بارادتى .. وأنا لا أريد الخروج ..

ـ وهو كذلك ! .. سأخرج وحدى ..

ـ كما تشاء ..

وعدت الى تشاغلى بعملى .. فارتدى ثيابه وهو قلق لعدم نشاطى لارتداء ثيابى .. وقبل ان يخرج أتى يحيينى ، فحييته .. فحاول أن يفزعنى بذكر الجهات التى سيذهب اليها ، ومن سمعه كان يظنه ينوى الذهاب الى آخر الدنيا .. فلم أكترث ، وتمنيت له رحلة سعيدة .. فتضاعف

ضيقه ، بيد أنه تظاهر بالهدوء . وقال لخادمهالخاص ان يتبعه في نزهته

وكانت لدى الخادم أوآمر سابقة ، فأجابه أنه مشغول فى تنفيذ اشياء أمرته أنا بها ، وانه يجب ان يطيعنى . ولم يتصور الطفل ان نتركه يخـــرج وحده ، وهو الذى كان يظن نفسه أهم شخصية في البيت ، ويعتقد أن الســـماء والارض ليست لهما مهمة اخرى سوى المحافظة عليه !

وبدأ يشعر بضعفه .. وبأنه سيواجه وحده أناســا لا يعرفونه . وتصور المخاطر التي سيتعرض لها ، الا ان العناد وحده هو الذى كان يشد أزره .. فنزل الســــلم ببطء ومشى فى الشارعمتعزيا عن المتاعب التى ستصادفه، وألوان الاذى التى سيتعرض لها ، بأن ذلك كله ســوف تقع جريرته على عاتقى . ولكنى كنت قد اعـــددت للامر اخراجا دقيقا بموافقة والده .. فما مشى فى الشــــارع بضع خطوات ، حتى سمع عن يمين ويسار تعليقات جارحة لشخصه تسخر منه

ــ انظر ايها الجار هذا السيد الجميل .. أين تراه يذهب هكذا وحده ؟

ــ انه ياجارتى سيضل طريقه .. أرىأن أدعوه للدخول عندنا ..

ــ احذر من ذلك ياجارى .. ألا ترى أنه طفل مغضوب عليه ، فطرده أبوه من بيته لما يئس من استقامته وطاعته ؟ ان الاطفال العصاة يجب أن يتركوا وشأنهم مهما تعرضوا لضلال الطريق ..

وبعد خطوات قليلة أخرى ، التقى بشرذمة من الاطفال ابناء السبيل من عمره . فأخذوا يغيظونه ويتندرون عليه .. فشعر أنه فى وحدته ضعيف لا حامى له ، العوبة فى

يد جميع الناس .. وتبين ان شارات النبالة التى يحملها على صدره لا تكفل له الاحترام

وزادت الامور سوءا حين عاد الى البيت، ليجد والده يهبط السلم .. فكان على الطفل ان يفسر لابيه اين كان ، ولماذا خرج وحده . فتمنى المسكين لو أن الارض ابتلعته .. وأفهمه أبوه أنه عاص ، وعليه فى المرة القادمة التى يغادر فيها البيت بمفرده ان يرتب عزمه كى لا يعود آليه .. فهو لا يقبل فى بيته العصاة والخارجين على النظام !

أما أنا فقد استقبلته بلا تأنيب أو سخرية .. ولكن ببرود وصرامة حتى لا يتبادر الى ذهنه ان المسألة كلها كانت مدبرة . وعاقبته بعدم الخروج معه فى ذلك اليوم فى ساعة النزهة المعتادة

وفى اليوم التالى حرصت ان اخرج معه .. فخرج ويده في يدى فخورا على تلك الجماعات التى هزئت منه بالامس حين مر بها وحده . ومن المفروغ منه ، أنه لم يجرب بعد ذلك مطلقا ارغامى على الخروج معه

وبهذه الوسائل ، وما يجرى مجراها ، استطعت فى غضون المدة التى قضيتها مع ذلك الطفل أن أسيره كما أشاء ، من غير مواعظ ومن غير تحذيرات ونواه أو ضجر بدروس لانفع منها ..

كنت أصمت فيكون صمتى مصدر قلق له لانه يعلم أن خطتى العملية ستكون هى الدرس الحازم الذى يتعلم منه ما اريده أن يتعلمه ..

القسوة

أما الانحراف الناتج عن الاسراف فى القسوة ، فهو الغالبية العظمى من الحالات الواردة على المؤسسات الاصلاحية ومحاكم الاحداث !

هذا مع الاعتراف بأن هناك نوعا « هجينا » من المنحرفين ، يرجع اعوجاجه الى الجمع بين النقيضين : التدليل المفرط والقسوة المفرطة ، جمعا من شأنه أن يطيش الصواب ..

وقد يبدو من العسير أن يحدث هذا التناقض فى المعاملة .. ولكن علينا أن نتذكر أن الاسرة يتولاها شخصان عادة هما الاب والام . وليس فى النادر أن يكون الاب متطرفا فى صرامته وشدته ، وأن تكون الام مفرطة فى حنانها ورقتها وعطفها ..

وعلينا أن نتذكر أن تجارب الطفولة ذات أثر عميق فى مستقبل نمو الطفل وتكوينه النفسانى والعقلى ، واننا لنقدر أن حزم الوالد ضرورى .. وان حنان الام ضرورى كذلك ، ولكن الخطأ ليس فى الحزم والحنان ، بل فى تجاوز كل من الحزم والحنان لحدودهما المعقولة ..

ان الاب يمثل الواقع القاسى ، كما سيبدو للطفل فى المستقبل ، كما أن حنان الام من شأنه أن يخفف من وقع شدة الاب ــ مع الاصرار على طاعته ــ مما يهيىء للطفل

لنشأة متوازنة من مواجهة الواقع فى المستقبل بأقل خسارة ممكنة ..

اما اذا كان الاب مبالغا فى قسوته ، والام مبالغة فى حنانها لدرجة أنها تعارض الاب وتسفه مطالبه وأوامره .. فانها ستكون ملاذا لذلك الطفل كلما اشتد عليه أبوه كى تحميه من غضبه وتعفيه من الطاعة له . وهو بهذا يتجنب باستمرار مواجهة الواقع ، وبذلك يبقى دائما تحت سيطرة مبدأ اللذة . وهذه هى بداية الطريق الى الانحراف .. لان شعار هذا الفتى هو « مهما تمردت أو أخطأت أو تكاسلت فلن يصيبنى أذى »! .. وهذه هى ضريبة التربية الفاسدة !

***

وليس معنى القسوة أن تكون بالضرورة قسوة بدنية .. فمن الاطفال ما يعتبر قسوة بالنسبة له كافيةلجرحه ان تعامله بجفاء ، معاملة تشعره بأنه محروم من المحبة والحنان .. وهذا الاثر يساوى عند ذوى الحساسية من الاطفال اثر الضرب والقسوة البدنية عند غيرهم .. وهذه الفروق الفردية امر مشاهد معترف به عمليا وعلميا .. ولها أثر كبير فى نشأة الانحرافات . وهذه نقطة يجب الا نتجاهلها أو نغفل عنها ، ونحن نفسر سلوك الاطفال والشبان الذين يبدو عليهم الانحراف .. فلا ننخدع بالمظاهر ، ونعتبر عدم ضرب الطفل دليلا كافيا على عدم شعوره بالقسوة فى تربيته .. فلا بد ان نعمل حسابا كافيا لنسبة الاحساسات عند الاطفال ..

وقد يحدث ان ينكب الطفل ويضطر لمواجهة قسوة الواقع ، وهو فى سن غضة .. فلا يستطيع فى تلك المرحلة المبكرة فى نموه أن يحقق التكيف المطلوب مع الواقع . وبدلا من ان يتيسر للطفل التكيف قبل الاوان ،

يصاب غالبا بنكوص يؤدى الى عرض من أعراض الانحراف بعد فترة تبدو وكأنها لا غبار عليها ..

ومعنى هذا النكوص ، أن يعود مبدأ اللذة الى توجيه سلوك الطفل كما كان الحال فى مرحلة سابقة من مراحل نموه ..

وشر مافى النكوص ، أن الطفل حين يرتد الى مستوى من مستويات نموه القديمة كى يحصل على اشباع نوع معين من رغباته ، فان تقدمه نحو النمو من تلك النقطة التى ارتد اليها يكون أصعب بكثير من النمو الطبيعى . ولذا نجد الطفل الذى أصيب بالنكوص أقل استعداد للاستجابة للحزم ، والاستسلام للشدة .. فبعد أن كان يتحمل الشدة يتمرد عليها تمردا صريحا ، ليس من النادر ان يقترن بأعمال العنف عند المراهقين ..

ومن واجب المربى أو المعالج ـ على كل حال ـ أن يساعد الطفل على اجتياز ما يعترض طريق نموه من عقبات الى أن يتخلى عن مبدأ اللذة الطفلى ، ونتقدم نحو مستوى اكثر تناسبا مع عمره يسيطر عليه فيه مبدأ الواقع

ومن أهم مـا ينبغى ان يعنى به المربى ، أن يبث فى الفتى المنحرف ملكة الحكم والتمييز .. ويدربه على أن يوازن بين اللذة المباشرة التى تعقب ألما أو اذى ، وبين تأجيل هذه اللذة المباشرة او التنازل عنها فى سبيل لذة من نوع آخر

ومن الاهمية بمكان أيضا ، أن يتعلم المنحرف ان القدر من اللذة الذى يظفر به من التوافق مع المجتمع اكثر وأهم من تلك اللذات المتناثرة الجزئية المباشرة التى يجنيها عن طريق بحرمه المجتمع ..

ومن المحتمل أن يكون الفتى المنحرف ناقص الادراك فيما يتصل بالواقع .. فاهتمامه كله منحصر فى تحصيل اللذات اللاشعورية .. أما المجتمع واوامره ونواهيه فليست عنده موضع اهتمام ولا يدركها ادراكا كافيا ، ولذلك لا يهتم باستهجان المجتمع له ..

ان الفتى الذى يثق ثقة تامة بحب والديه له مهما فعل ، أو يستطيع الاستفادة من التضارب بين الابوين أو تنافسهما على حبه يجب أن يبدأ علاجه بتحميله المسئوليات ، وبأن يشعر بأن عليه واجبا نحو نفسه ، وأنه اذا لم يقم بهذا الواجب ولم يتعهد برعاية مصالحه وحماية نفسه فلن يقوم أحد عنه بهذه المسئوليات

ومن الضرورى ان يقوم المعالج أو المربى بدور أساسى عن طريق التحويل الذى وضحنا وسائله فى فصل سابق .. وعلى المربى ــ وهو يقوم بهذا الدور ــ ان يستخدم سلاح التقدير للفتى ، ولكن بشرط الا يمنحه تقديره الا جزاء على قيام الفتى بتحقيق مسئولية من مسئولياته ..

ومن الطبيعى اذا كان الطفل مدللا متعودا أن تجاب جميع مطالبه ولا يتعرض لاى متاعب او صعوبات ، أن يرفض الخضوع لاى نوع من الحرمان ، ويأبى اطاعة المربى أو المعالج فى كل ما يحول بينه وبين رغباته ولذاته المباشرة

وفى هذه الحالة ، لابد من التذرع بالصبر الى ان ينشأ « التحويل » بحيث تكون لذة الطفل من ارضاء المربى أهم عنده من لذاته المباشرة الشخصية ..

وهكذا يعزل مبدأ اللذة عن العرش ، ويبدأ مبدأ الواقع فى السيطرة ..

وأما الفتى الذى كان انحرافه نتيجة قسوة مفرطة فى

بيئة البيت ، فهو قد تعود الحرمان من رغباته أوالمعارضة لها ‥ لذا يجب أن يعامله المربى أو المعالج معاملة تختلف تماما عن معاملة الولد المدلل ‥

ان مثل هذا الفتى بحاجة الى الايناس وتبديد ظمئه الى الحب .. انه بحاجة الى ما يعوضه عن الحنان المفقود .. فعلى المربى أن يجعل من نفسه صديقا له ، يبذل له من نفسه ويفتح له قلبه ويتبسط معه ‥ ويتيح له المتعة والظفر باللذات المباشرة ، بعد حياة كبتت فيها هذه اللذة ‥ ثم يتدرج به الى التكيف مع الواقع شيئا فشيئا ‥ ذلك الواقع الذى هو مزيج من اللذات والآلام

وقصارى القول أن كل حالة من حالات الانحراف لها ظروفها ولها اسبابها ‥ ولذا يجب أن يكون لها منهج خاص بها فى العلاج ‥ وقد يكون الانحراف الواحد فى شابين له سببان متناقضان فى هذا وذاك ‥ ولذا يجب ان يكون منهج العلاج لهذا الفتى عكس منهج علاج الفتى الآخر

ان بيئة العلاج والعلاقة بالمربى يجب أن تكون عكس علاقته بوالديه ‥ فان كان انحرافه ناشئا عن التدليل ، فعلاجه يكون عن طريق الاشعار بالمسئولية وأداء الواجب وتحمل الآلام والحرمان ‥ وان كان انحرافه ناشئا عن القسوة والحرمان ، فيجب ان يكون علاجه عن طريق المحبة والصداقة والتقرب ‥ وهكذا ‥

ومما يؤسف له حقا أن نجد معظم الاولاد فى الاصلاحية ضحايا تربية منزلية قاسية ‥ ثم نجد المشرفين على الاصلاحيات يعاملونهم معاملة لاتختلف عن تلك المعاملة التى كانت سببا فى انحرافهم ، فيزيدون الجرح عمقا واتساعا ، ويضاعفون الضرر ‥ ولذا نجد المنحرف يدخل تلك الاصلاحيات ليخرج منها وقد تحول الى مجنون أو مجرم !

الفصل السادس

الذات العليا



الذات العليا

وقد آن لنا ان نتساءل :

ـ لماذا تستجيب الكثرة الغالبة من الناس للاوضاع والنظم الاجتماعية بلا معارضة أو شغب ؟

من المعروف بالتجربة أن فى سريرة كل انسان منا صوتا داخليا يمنعه من الاقدام على أى عمل يأباه المجتمع .. وهذا الصوت الداخلى هو المسمى بالقانون الاخلاقى ، أو الحاسة الخلقية ..

والحاسة الخلقية ، كما تنهانا عن مخالفة المجتمع والخروج عليه ، كذلك تأمرنا بعمل أشياء معينة . وحالة النهى تؤدى الى الكف او الكبت .. وحالة الأمر تؤدى على العكس الى الايجابية ..

وهذه الحاسة الخلقية جزء من « جهاز نفسى » يقوم بعمل الرقيب على أفعالنا ونشاطنا العقلى والنفسى . وهذا الرقيب هو الضمير .. وهو الذى يسر للعمل الطيب ويستاء من العمل السيىء ..

وبين علماء النفس من يسمون الرقيب أو الضمير « الانا الناقد » ويسمون الجانب الناشط من العقل « الانا الفعال »

إن الذات الفاعلة تفقد كل قدرة على التوجيه ، اذا كانت الذات الناقدة غير مرتبطة تمام الارتباط بما للمجتمع من

مطالب ومقتضيات .. ولابد للانسان كي يعيش في توافق مع المجتمع ، أن تكون له ذات متوازنة مستعدة لمسايرة السلطة الاجتماعية من غير تمرد أو صراع

والحقيقة أنه مهما كثرت العنـــاصر التي يتكون منها بنياننا النفسي والعقلي ، الا أن المفروض فينا ان نحس بأننا لسنا مجرد كائنات .. بل نحن كائنات من جنس معين . وهذا الشعور بالانتماء الى نوع بشرى والى أمة معينةعميق فينا ..

وقد كان لفرويد فضل كشف اللاشعور ، وأنه القسم الاكبر من الذات ..

وذات كل منا تنمو على مراحل طويلة من البحث عن اللذة المباشرة ، الى التوافق بين اللذة والواقع الخارجي . ويحدد هذا النمو جملة عوامل ، بعضها داخل الانسان ، وبعضها في البيئة الخارجية . وهذه العوامل الداخليـــة والخارجية تترك آثارها في الشخص .. ومن احتكاكه بها ، واستجابته لها ، وتفاعله معها ، يتم التعلم والتقدم والنضج

ولا نرى بأسا من تكرار حقيقة سبق أن أشرنا اليها.. وهي ان الحياة الوجدانية عند الطفلالصغير ، وما تحفل به من تجارب وخبرات ، هي التي تحدد فيما بعد الحيـــاة الوجدانية للشخص البالغ الذي سيصير اليه ذلكالطفل

وفي المرحلة الاولى من الطفولة ، لا تكون لدى الطفل أي فكرة محددة عن العالم الخارجي من حوله .. فهو متركز بشعوره واهتمامه في شخصه ، فيستمد كل لذاته من أعضاء جسمه .. لان لذاته في تلك المرحلة الاولى تنحصر في اشباع احتياجاته العضوية ، فهو ليس بحاجة الى شيء مما يحيط به كي يتم له هذا الاشباع . ولذلك

يقال ان ذات الطفل فى المرحلة الاولى من عمره هى كل دنياه .. وتسمى هذه المرحلة بمرحلة « اللذة الذاتية »

وبعد انتهاء هذه المرحلة ، تبدأ مرحلة يلاحظ فيهـــا الطفل اشخاصا آخرين موجودين حوله .. ويبدأ فى توجيه انتباهه واهتمامه بهم . وهكذا يتحول جزء من حب الطفل لذاته الى موضوعات خارجية .. وهكذا يتحول الطفل من الحب « النرجسى » او حب ذاته فى المرحلة الاولى الى حب موضوعى ، أو لذة موضوعية فى المرحلة الثانية .. بمعنى ان لذته ورغبته وتعلقه صار موجها الى موضوع خارج شخصه ..

وفى جميع المراحل التالية ، تظل موضوعات اهتمام الطفل وحبه ولذته تتغير وتتبدل .. ولكن تغير اهتمام الطفل من موضـــوع الى موضوع ، ليس معناه أنه نسى الموضوع الاول حين تركه الى موضوع ثان .. بل يترك هذا الاهتمام بالموضـــوع الاول أثره البـــاقى فى نفس الطفل ..

فلا ينبغى أن نعتقد ان فتور حب الطفل لشخص ما ، وتحوله الى حب شخص آخر ، قد اضاع معالم الحب الاول. فالملاحظ ان الطفل ينتحل لنفسه صفات الشخص المحبوب حتى عندما يفتر حبه له . وهذا الانتحال هو الذى يسمى فى علم النفس بالتقمص

وربما حدث التقمص أيضا من غير ان يفتر حب الطفل للشخص الذى يتقمص شخصيته . ولكن يجب ان نتذكر ان التقمص ليس اى انتحال لصفات المحبوب ، بل يجب أن يكون الانتحال فى هذه الحالة شـــديدا وشاملا لصفات كثيرة .. وعندما يفتر الحب ، يظل التقمص باقيا فى الذاكرة .. فكأن التقمص التقاط صورة للشخص المحبوب،

فتظل هذه الصورة باقية سواء حضر صاحبها أو غاب ..

وأهمية التقمص فى حياة الطفل أن الشخص المحبوب يقدم للطفل لذات موضوعية ، أى أن لاشعور الطفل يحصل على لذاته عن طريق التمتع بقرب الشخص المحبوب . وفى حالة التقمص يستطيع الطفل ان يقدم ذاته كموضوع لهذا الاشباع لدى لاشعوره .. فكأنه صار جامعا بين المحب والمحبوب . وفى هذه الحالة يتحول الحب من موضوعى كما هو فى الظاهر ، الى حب نرجسى أو ذاتى كما هو فى الحقيقة ..

ومن الاهمية بمكان ، أن ندرك الدور الخطير الذى يلعبه الاب فى حياة كل طفل .. فالاب هو أول شخصية يتقمصها الطفل ، وتظل آثار من هذا التقمص موجودة حتى بعد ان يتصور الشخص انه انتقل من حبه لابيه الى حب اشخاص آخرين ، وان محبة والده قد بهتت كثيرا ..

وخطورة التقمص ناجمة من أنه عن طريق هذه العملية، تضاف باستمرار الى شخصية الطفل صفات جديدة منتحلة من الاشخاص أو الموضوعات التى يتقمصها .. وهذا هو السر فى سرعة تغير احوال واطوار الاطفال وصفاتهم اثناء النمو ..

ولكن يجب الا يتبادر الى ذهننا ان صفات الشخصيات الجديدة تضاف الى صفات الشخصيات القديمة ، مثلما نضع كتابا فوق كومة أخرى من الكتب ، أو حجرا فوق تل من الاحجار .. بل ان هذه الصفات الجديدة تندمج مع الصفات القديمة لتكوين شخصية واحدة جديدة على طريقة غير معلومة ، لانها سر من أسرار كل نفس وتختلف على حسب ظروفها ..

ولا شك أن عمر الطفل له دخل كبير فى شدةالتقمص .. فبديهى ان التقمص يكون أشد وأبقى أثرا كلما جاء فى تاريخ مبكر من حياة الطفل ..

وهذا الحديث عن التقمص جدير آن ينبه اذهاننا الى أن دراسة الذات لا تخضع لعوامل الوراثة وللتكوين الفطرى وللبيئة فقط .. بل انها تتأثر أيضا والى حدكبير بأنواع التقمص المتفاوتة الشدة التى طرأت على شخصية الطفل ..

وبديهى كذلك ان أنواع التقمص الاولى تكون أبقى أثرا ، لانها تجد المجال خاليا أمامها نسبيا .. وتكون ذات الطفل أشبه بالعجينة الخام التى تتطبع بالطابع الجديد من غير مقاومة ..

وأول موضوعات للتقمص هم الآباء والامهات ، ومن يتولون التربية من خدم أو مربيات أو عمات أو خالات أو جدات مقيمات بالمنزل

والمألوف ان يكون أهم تقمص موضوعه الاب والام .. ولكن قد يحدث فى بعض الحالات ان يكون تقمص الخادم او الجدة اكثر أهميه بالنسبة لظروف خاصة بالطفل واسرته ..

ولعله من المفيد أن نتذكر حالة ذلك الفتى الذى هرب من امه الى ضاحية قريبة ، وقضى فى الغابة يومين أو اكثر بحجة احضار ثمار الكرز لامه .. وكيف اتضح من تحليل نفسيته أنه كان يقلد سلوك أبيه وهو لا يدرى .. وذلك ولا شك أثر من آثار التقمص

وبمناسبة تقمص الطفل لشخصية الاب تقمصايبقى أثره حتى عندما تعترض المرحلة « الاوديبية » ذلك الحب،

يجب ان نتأمل فى الموقف « الاوديبى » ونزيده بيانا قبل ان نختتم هذا الكتاب ..

ان الموقف « الاوديبى » معناه تعلق الولد بأمه تعلقـــا يجعله يغار من أبيه ويضيق به ضيقا لا شعوريا . وهكذا تترسب عن طريق تقمص شخصية الام صفات اخرى فى شخصية الطفل بعد الصفات التى ترســـبت من تقمص شخصية الاب فى مرحلة سابقة ..

وعقدة « أوديب » تزول قبل سن البلوغ بصورة طبيعية عند الاطفال الذين ينمون نموا طبيعيا . والفترة التى قبل سن البلوغ تنتهى فيها الرغبة « الاوديبية » ولا تحل محلها رغبة أخرى متعلقة بموضـــوع جديد لفترة من الوقت .. فنقول عندئذ ان الرغبات فى مرحلة مـــا قبل البلوغ فى حالة « كمون » وتسمى هذه المرحلة لذلك بمرحلة « الكمون» أو فترة الكمون ..

وعقب هذه الفتــرة مبــــاشرة ، يكون تقمص الفتى لشخصية الاب وشخصية الام مزدوجا .. لانه قبيل البلوغ يكون غير متميز الجنسية ، لم تتغلب فيه بعد الذكورة على الانوثة تغلبا حاسما

وهكذا يجتمع للفتى فى تلك الفترة القطبان الايجابى والســــلبى .. وهما القطبان اللذان من المفروض أن يتعارضا باستمرار ويتنافرا

ومن هذه النقطـــة يبدأ تكوين ما يســـميه فرويد « بالذات العليا » ولا بد لتصور الذات العليا ونشأتها ، من التنبه الى وجود مراحل معينة متعاقبة فى النمو النفسى على النحو التالى :

أمام الفتى مصدران للسلطة كلاهما محبوب .. وهمـا

الاب والام ، وان كان الاب يتميز بسلطة اكبر فى احساس الطفل ..

وهذان الشخصان المحبوبان يستخدمان سلطتهما ، كل من جهته او متعاونين ، لحمل الفتى على التخلى عن بعض رغباته الغريزية اما عن طريق الرغبة أو الرهبة ..

ودور الاب فى الامر والنهى أوضح من دور الام بالنسبة للذات الخارجية .. وهو وحده يلعب دورا لاشعوريا بالنسبة لرغبة الفتى المتجهة فى لاشعوره نحو أمه ، مما يضطر الفتى لتحويل تلك الرغبة الى اتجاهات أخرى ..

والاب فى أوامره يغرى ابنه كما تغريه الام ان يفعل كذا وكيت بالطريقة الفلانية ليكون مثل أبيه . وهو فى نواهيه ـ ونواهى أمه ـ يمنع الفتى عن اتيان اشياء معينة أخرى يفعلها الاب .. فكأنما يقال له لا ينبغى ان تفعل فى هذه الامور فعل أبيك ، لانها من حقه وحده . ومن هذه الاشياء التى يختص بها الاب ، وتحرم على الابن ، الرغبة اللاشعورية فى الام ..

ان الاب يمثل فى وجدان الفتى عندئذ سلطة المجتمع من أمر ونهى..والفتى يقتدى بأبيه ، ويريد أن يغدو مثله عندما يكبر كى يظفر بالاعجاب والسلطة ، وكى يسمح له بفعل ما ينهى عنه مما يختص به الاب وحده ..

وهكذا يعود الفتى الى تقمص شخصية الاب فى سن المراهقة ، ويكون هذا التقمص عونا كبيرا له على التكيف بالمجتمع والتوافق مع الواقع الاجتماعى الذى يتمثل فى شخصية الاب ..

وبالتدريج تترسب صفات الاب فى هذه المرحلة ، وتتحول أوامره ونواهيه الى اوامر ونواه ذات طابع مطلق

كأنها القانون العام .. وهذه هى الصورة الاولية للذات المثلى أو العليا ..

انها مجموعة القوانين الآمرة والمانعة التى ترسبت فى نفسية الفتى من تقمص شخصية ابيه ، نتيجة الرغبة والرهبة معا ..

والذات العليا ـ بهذا الوضع ـ انما هى جانب من الذات العادية ، جعل من نفسه قاضيا وحكما ورقيبا على بقية الذات .. فهى تقوم بدور الاب الملازم للفتى فى داخل سريرته تراقب حركاته وسكناته ، وتحكم عليها بالاستحسان أو الاستهجان ..

ويلاحظ « فرويد » فى هذا الصدد أنه كلما كانت عقدة أوديب قوية عند الطفل عميقة الاثر ، ثم كبتت بسرعة بتأثير التعاليم الدينية والتربية البيتية والمدرسية وغير ذلك .. كان سلطان الذات العليا على شخص الفتى فيما بعد أقوى وأدق وأكثر احكاما

ويرى « فرويد » أيضا أن السنة الخامسة أو السادسة من عمر الطفل من أهم ما يكون فى تحديد معالم شخصيته الرئيسية . ولكن ليس معنى هذا أن تربيته بعد ذلك لاقيمة لها ، أو أن تقويمه مستحيل .. بل المقصود ان التأثيرات فى تلك السن المبكرة تكون مستمدة من الابوين قبل دخول الطفل المدرسة ، وأن هذه التأثيرات البيتية يبقى مفعولها مستقرا فى النفس مدى العمر . ومع ذلك فالذات العليا يمكن أن تتأثر بأشياء كثيرة ، تأتى فى مراحل متأخرة مثل القراءة العميقة وتقمص شخصيات المدرسين اذا وجد فيهم من يثير الاعجاب عند الفتى ، وأبطال القصص ، وكل من يمكن ان يحل محل الوالد فى الاعتبار الادبى ..

وما افقر الذات العليا التى تعتمد على الاقتداء بالآباء فقط ، اذا كان هؤلاء الآباء من مستوى غير رفيع فى الخلق والثقافة ..

وايا كان حال الآباء ، فان تكوين الذات العليا من تقمص شخصياتهم انما يدل على اهمية مكانة الاب عند الطفل حتى ان حبه له يصل الى درجة امتصاص شخصية الاب للاحتفاظ بخلاصتها الحية داخل شخصيته فوق نصب عال يمثل المعبود ، أو فوق منصة القاضى الذى لايحابى فى المثوبة والقصاص

وليس من العسير أن نفهم بعد ذلك أن الذات العليا هى أساس ما نسميه بالضمير .. وسلطة الضمير على الشخص فى جميع مراحل العمر ، لا يمكن أن تقارن بها اى سلطة أخرى .. وان صورة الواجبات الاجتماعية التى يتلقاها الطفل عن ابيه هى أول صورة للواقع الاجتماعى يواجهها ويكيف نفسه بها .. وان كانت القراءة والمذاهب السياسية والاجتماعية قد تدخل تعديلات كثيرة على هذا المفهوم الاجتماعى ، الا أن الشعور بالمسئولية ومحاسبة النفس ومراقبتها تظل لباب هذه السلطة المستمدة قبل كل شىء من شخصية الاب وسلطته ..

وهذا ينقلنا الى أهمية الاثر الذى يتركه الاب بالقدوة فى نفوس أولاده اذا كانوا كثيرين ، فان محبة الاب وقربه من قلوب أولاده يجعلهم يتطبعون بطباعه ، أما اذا كان فى الاب صفات مكروهة من بعض أبنائه ، فانهم فى الغالب سينبذون هذه الصفات عند التقمص ..

ويتلو الاب فى الاهمية المدرس .. فالمدرس المحبوب الشخصية قد يستطيع — ولا سيما فى المرحلة الاولى — أن يطبع فى الطفل نوعا جديدا من التقمص ، قد يدخل

تعديلات لا يستهان بها على رواسب شخصية الاب ..

ولذلك فمن الجناية على أجيال الاطفـال ، أن يكون المعلمون غلاظ الاكباد شرسين ، أو فى طباعهم جفوة أو عدم اكتراث أو ميل لازدراء الصغار وتسخيفهم .. فان هذه الصورة ستنطبع فى نفوس الاطفال ويترتب عليها أن تكون نظرتهم الى أفراد المجتمع من حولهم مثل هـذه النظرة القاصرة المشوهة ..

ومما لاشك فيه أيضا ، أن وجود مدرسين ذكور من ذوى الشخصية اللطيفة القوية فى مدارس البنين الابتدائية اجدى على تكوينهم النفسى والاخلاقى من وجودهم تحت اشراف مربيات طول الوقت ، لأن التعلق بمدرسـة قد يؤدى الى رواسب انثوية زائدة عن الحـد عن طريق التقمص



الطريق الى الانحراف

والمفروض حين تبدأ الذات العليا فى التكوين ، أن ترتب الذات العادية أمورها بحيث تنساق وتنقاد لأوامر الذات العليا ونواهيها من غير صراع أو أزمات .. كما ينقاد الطفل السوى لسلطة أبيه

ولكن ليس هذا ما يحدث فى جميع الاحوال ..

وعندما يوجد تناقض داخلَ الشخص بين ذاته العادية وذاته العليا ، أى بين أفعاله وضميره ، يكون عرضة للصراع النفسى بين الشعور واللاشعور مما يؤدى به الى الانحراف ..

وقد يحدث أيضا أن تكون الذات العادية سلسة القياد للذات العليا ، فلا يكون بينهما صراع .. ومع ذلك يبدو الشخص منحرفا

فما السبب ؟ ..

الخلل فى هذه الحالة مصدره الذات العليا لا الذات العادية .. فلابد أن هذه الذات العليا قد جاء تكوينها ناقصا أو غير متوافق مع الصورة الحقيقية للمطالب الاجتماعية والواقع الاجتماعى ..

والمسئول فى الغالب عن هذا النقص هو بيئة الاسرة .. فالاب الذى يترك فى ابنه عند التقمص أثرا لايمثل الواقع

الاجتماعى لأنه رجل منحرف أو معيب الشخصية ، انما يتسبب فى نشأة ابنه على المنوال الخطأ .. ويكرر فى شخص ابنه عيوبه . وهكذا ينشأ أبناء قساة أو انانيون أو رجعيون أو شرهون مقتدون بآبائهم ، ويصطدمون بالمجتمع وضميرهم مستريح .. لأن هذا الضمير تشكل بصورة خاطئة ..

ان الضمير ككراسة « المشق » التى يقلدها من يتعلم الخط .. وقد يحسن التلميذ التقليد ويتقنه وهو مستريح البال لهذا الاتقان . ولكن الطامة أن تكون كراسة المشق نموذجا للخط الردىء لا للخط الجميل .. فتنشأ مشكلات بين التلميذ المجتهد وبين الناس .. وهو يصر على أن خطه حسن .. وهم يصرون على أن خطه غير مقروء !

وليس من النادر أن نشاهد فى السجون والاصلاحيات نزلاء يتقبلون الاحكام عليهم بسخرية ، غير مقتنعين بأنهم يستحقون العقاب أو أن العقاب عدل .. لا لأنهم ينكرون جرائمهم ، بل لأنهم لا يرون فيما أقترفوه أى جريمة ..

ان طريقة بناء الذات العليا ، أو الضمير الاخلاقى ، أو الحاسة الاخلاقية ، عند الطفل لها أهمية كبرى .. لأن الطفل قد يكون مستعدا للانصياع والاقتداء ، ويجعله سوء حظه تحت تأثير قدوة سيئة . فتخلو نفسه من الصراع الداخلى ، ولا يسلم من الصراع الخارجى بينه وبين المجتمع . ولو أن هذا الطفل وجد قدوة أفضل ، لصار تكوينه السليم الطيع بريئا من الانحراف الظاهرى أو الخارجى

وهكذا نجد أن هناك انحرافا داخليا سببه الصراع الداخلى ، بين الذات العليا والذات العادية .. وهذا

يعالج بالتحليل . ونجد انحرافا خارجيا تخلو فيه نفس الشاب من الصراع الداخلى ، ولكن ذاته المتجانسة تكون فى حالة عدم توافق مع العالم الخارجى ..

وهذه الحالات لا تحتاج الى السجن ، بل الى اعادة التربية .. وان كانت اعادة التربية بعد النضج أمرا عسيرا ، الا أنه ليس مستحيلا اذا عرفنا كيف نقيم المؤسسات الاصلاحية على أساس نفسى واجتماعى ، وكيف نتذرع بالصبر ..

ولسنا ننكر أن الذات العليا قد تنشأ مشوهة لاسباب وراثية فى الشخص ، أو لاختلال فى افرازات غدده الصماء .. فيكون الطفل عاجزا عن التشبع بأى موضوع تشبعا كافيا للتقمص . وبذلك يكون الاجرام أو الانحراف راجعا الىأسباب فطرية ، ومثلهذه الحالات لا فائدة من تضييع الجهود فيها بالعلاج أو الاصلاح أو اعادة التربية الاجتماعية ..

وفى أحيان أخرى يكونالمسئول عن تشويه الذاتالعليا عند الطفل ، ليس الاب بالذات ولا الام بالذات .. بل حالة الصراع المستمرة بينهما . أو ينحسم الصراعبينهما بالانفصال ، ويظل الطفل كالكرة يتقاذفها الاثنان .. كل منهما يحرضه ضد الاخر !

وليس من المستحسن أن نغض النظر عن حالة الطفل غير الشرعى ، أو الطفل المتبنى الذى فقد أبويه الشرعيين نتيجة كارثة وهو صغير جدا .. فينشأ عالة على بيوت الاقارب والمعارف أو المؤسسات الخيرية . يشعر أنه غير مرغوب فيه ، وانه كان من الافضل للجميع لو أنه مات مع أبويه . وتتقاذفه الايدى ، والبيوت ، لا يستقر هنا

ولا هناك فترة طويلة .. فلا تتاح الفرصة أمام الطفل للتشبع بشخص وتقمص شخصيته . وتظل الصور المحبوبة عنده مهزوزة أو باهتة وبطبيعة الحال لا يمكن أن يترتب على ذلك اقتداء أو تعلق أو بناء واضح للخلق والطباع .. فاذا أضفنا الى ذلك الفظاظة فى المعاملة ، كان من الطبيعى ألا تتكون لهذا الطفل ذات عليا الا فى أضيق الحدود وفى أقل المستويات ..

وتكاد تشبه حالة الطفل غير الشرعى حالة من يموت عنه أبوه صغيرا ، وتتزوج أمه رجلا اخر ، قد لا يكون كريم الطباع .. أو يكون غير مكترث بالطفل .. وأخطر ما يتهدد هذا الطفل ليس قسوة الام مسايرة لزوجها أو دفعا لغيرته واتقاء لسخطه .. بل أسوأ ما يصاب به أن تغرقه أمه بالتدليل لتعويضه عن حرمانه من أبيه ، فلا يجد الطفل شخصا تتمثل فيه سلطة المنع والردع والزجر وهى سلطة الاب الاصلية ، فينشأ وليس لديه من الذات العليا الا كيان خائر ضعيف أقرب الى العدم ..

وهذه الملاحظات كافية لتدلنا على أهمية دراسة الطفولة الاولى للشخص المنحرف ، كى نتعرف على بداية الطريق الى انحرافه ونضع أيدينا على بيت الداء ..

ومن المؤسف أن بعض المربين والمشرفين الاجتماعيين والنفسيين ، يهتمون فقط ببيانات الحالة المدنية التى لا تقدم ولا تؤخر مثل تاريخ الميلاد ، وحالة الاب المالية ، وايجار المسكن ، وفى أى سن بدأ يتكلم ، ومتى تعلم المشى ، وهل أصيب بأمراض كثيرة فى صغره ، الى آخر هذه المعلومات الشكلية التى لا تغنى شيئا فى فهم نفسية الشاب

ان أهم من ذلك الف مرة أن نعرف العلاقات الوجدانية

فى الطفولة الاولى .. من الذين كان يحبهم الطفل ؟ .. من الذى تولى تربيته ؟ وان كان يتيما فما هو احساسه بمن كفلوه ؟ وكم من الوقت لبث فى كل بيت ؟ والمعاملة التي قوبل بها فى كل بيت ؟ وهل كان له مثل أعلى فى تلك البيوت من بين اصحابها أو أبنائهم أو خدمهم ؟.. ومن الذى أثار فيه الكراهية والعداء أكثر من غيره ؟ ..

وهناك نوع من الحالات المنحرفة ، ينشأ فيها الانحراف عن تفاوت شديد بين الذات والذات العليا .. وذلك عندما تكون الذات العليا متشددة فى تحكمها مغالية فى مستواها .. بينما الذات العادية متخلفة ضعيفة ، لا تستطيع مجاراة الذات العليا ..

وفى هذه الحالة ، نجد الذات العليا تتميز بالجبروت والاستبداد .. فترغم الذات على تحمل ما لا تطيق لتحقيق أغراضها ، فيترسب فى الشعور احساس بالتقصير وما نسميه التأثم أو الشعور بالذنب ..

وكلما زادت سطوة الضمير وقسوته فى الحساب والتحذير ، كان الشعور بالاثم فظيعا مؤلما .. ولا سيما عندما تحاول الذات مقاومة الذات العليا والتخلف عن المستوى الذى تطالبها به .. فتضيق الذات بهذا الالم المستمر من تبكيت الضمير ، وتكبت فى اللاشعور هذا الاحساس بالذنب ، وتنسى كل ما يتعلق به حتى تستريح من العذاب الذى لا يطاق ..

ومن المفارقات العجيبة ، أن الاصل فى عملية الكبت اللاشعورية أن تأتى بايحاء من الذات العليا كوسيلة لحماية الذات من الالم البالغ .. ولكن فى حالة الشعور

بالذنب، يستخدم الكبت كعملية وقائية من آلام مصدرها الذات العليا نفسها ..

ويترتب على كبت الشعور بالذنب أن يتضخم فى اعماق اللاشعور فى غفلة من عين الرقيب ، مما قد يؤدى الى أنواع من الانحراف تصل الى الاجرام للتنفيس عن هذه الطاقة المكبوتة ..

وسأضرب هنا مثلا للانحراف الناتج عن كبت الشعور بالذنب ، فقد سرق شاب مبلغا من المال من دولاب ملابس أبيه .. ولم تحم حوله الشبهات والصقت التهمة بغيره ، واذا بهذا الشاب يشترى بجانب من ذلك المال قبعة جديدة . ومع انه يعلم تمام العلم أن القبعةالجديدة ستوجه اليه أنظار من فى البيت ، ويسألونه من أين لك هذه ؟ .. اذ انه جاء بالقبعة الجديده الى البيت ، وهو سلوك منحرف جاء نتيجة احساس لاشعورى مكبوت بالذنب !

وقياسا على هذا النموذج ، سنجد مجرمين يقترفون جرائمهم بصورة تدل على غباء غير معقول لابد أن يكشف عن شخصيتهم ، أو الذين يعودون الى مسرح جريمتهم متعرضين اخطر الاشتباه أو القبض عليهم .. فمثل هؤلاء يحملهم على ذلك التصرف الغبى رغبة لاشعورية فى العقاب للتخلص من الاحساس المكبوت بالذنب ..

واحب ان أنبه فى الختام الى ان النظرية القديمة التى تعالج الانحراف، بالقسوة المفرطة خطأ .. وكذلك النظرية الحديثة جدا التى تعالج الانحراف بالرقةالمفرطة والتدليل خطأ أيضا .. انما الواجب أن يعالج المنحرف كما يعالج المريض ، فنفهم سر انحرافه ، وتاريخ انحرافه ، واطواره

التى مر بها .. وعلى ضــوء هــذا كله ، نتيح له بطريق « التحويل » تقمص شخصية جـديدة وبناء ذات عليـا تدخل تعديلات على ذاته العليا القديمة بقدر الامكان ..

هذا هو طريق العلاج العلمى لازمات الشباب وانحرافهم .. علاج أساسه العلم والفهم لا القســوة الغاشـمة أو الحنان الابله



فهرس

صفحة

وكلاء مجلات دار الهلال

العـــــراق : السيد محمـــــود حلمي ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقيـــة : السيد نخله سكاف

جـــــدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص.ب ٢١

البـــرازيل : Dr. Michel Tohmé,
Rua Basilio Jafet No. 127,
5" and Sal 54.
SAO PAULO — BRASIJ

سيـــراليون : Messrs Allie Mustapha & Sons.
P O Box 410
Freetown Siera Leone

سنغافورة : M Ahmed Bin Mohamad Bin Samit.
Almaktab Attijari Assharqi.
P O Box 2205
SINGAPORE

انجـــلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU.
/, Bishopsthorpe Road
London S. E 26
ENGLAND

نيجـــريا : Mr. Mohamed Said Mansour.
Atlas Library Company,
[illegible] Nnamdi Azikiwe Street
LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

بعد عمر طويل قضاه المؤلف فى الاشراف النفسى والعلاج الاجتماعى لازمات الشباب ، من كافة الطبقات الاجتماعية ، جمع خلاصة تجاربه الثمينة بين دفتى هذا الكتاب

والمؤلف بلغ من النضوج حدا جعله قادرا بصورة غير عادية على تقريب المسائل العلمية العويصة من اذهان القراء العاديين،وتوضيح مراده لهم ، ويلجأ دائما الى الامثلة التطبيقية ،ويعرض الحالات الواقعية ويبين كيفية تشخيص عللها ، ومعرفة طريقة العلاج الناجح لها

وليست قيمة هذا الكتاب علمية فحسب .. بل ان له قيمة عملية اخرى لدى كل مشرف أو مرب أو أب أو أم .. فأزمات الشباب ظاهرات عامة لا يكاد يخلو شباب من التعرض لها بصورة أو بأخرى .. فمن ألزم الامور أن نعرف كيف ((نفهم)) هذه الازمات عندما تصيب فلذات أكبادنا ، حتى لا نسىء التأويل ، ونسىء التصرف ، فتتطور الازمة الى عقدة ، أو الى مرض نفسى يستعصى على العلاج